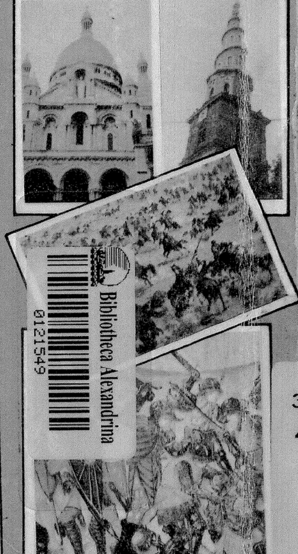




الصراع الكبير بين الشرق والغرب

ومراحل تطوره عبر ١٣ قرنا





تأليف
لواء أ.ح.م/
عبد الحميد على شرف

الصراع الكبير
بين
الشرق والغرب

مراحل وتطور الصراع عبر ١٣ قرنا

تأليف

لواء ا ح م/ عبد الحميد على شرف

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

المقـدمة

إن الواقع المر الذى تعيشه الأمة العربية والإسلامية غنى عن التدليل .. ولا شك أننا نعانى أزمات سياسية .. واقتصادية واجتماعية .. إضافة إلى ذلك الشعور بالإحباط العام والروح المعنوية المنكسرة .. والشعور بالعجز والتدنى إزاء المجتمعات الغربية .. الذى يتزايد باتساع الهوة الحضارية بيننا وبينهم اتساعا يتسارع بمعدلات كبيرة .. ولا شك أن ما نعانى منه الآن إن هو إلا نتائج طبيعية لمقدمات طبيعية وظروف تكاتفت على قهرنا من أزمان طويلة ..

فمنذ نحو ثلاثة قرون .. ونجم الشرق فى أفول مضطرد حتى انتهى إلى هذا الواقع المر فى العقد الأخير من القرن العشرين .. الآخرون أقوياء ، أذكياء تمكنوا خلال هذه القرون من تطوير نوعياتهم والخروج تدريجيا من موقف الدفاع ويتمكنوا من الهيمنة على العالم تحت ظروف معينة من خلال أسباب موضوعية لابد لنا من محاولة فهمها .. فهما موضوعيا .. فصراع الشرق والغرب امتد نحو ثلاثة عشر قرنا من الزمان والخيار الوحيد أمامنا هو الخروج من أزمتنا المعاصرة مع الغرب لا بهدف تبادل المراكز مرة أخرى وإنما سعيا للمشاركة معه فى بناء العالم .. حيث لا يمكن للضعفاء أن يسهموا فى ذلك .. طالما ظلوا ضعفاء فكرا .. وعملا .. ومنهجا .. وإذا كان بعض الأقوياء لا يريدون لنا القوة .. فلنتسلل إليها ... مثل اليابان وكوريا .. بالعمل الدؤوب مع وضوح الرؤية والهدف وعندئذ سنكون جديرين بالمشاركة فى بناء العالم لخير البشرية .

الهدف من هذا الكتاب هو :

أولا : تبين كيفية وتحت أية ظروف تمكن الغرب فى الثلاثة قرون الأخيرة من انتزاع المبادأة تماما فى صراعه مع الشرق حتى تمت له الهيمنة

الكاملة عليه .

ثانيا : الفهم الموضوعى لحركة التاريخ فى أثناء فترة الصراع التى امتدت نحو ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، وظروف صناعة جزيئاته .

ثالثا : معاونة القارىء على رؤية واكتشاف بعض الضوء على طريق الخروج من إحباطنا العام وأزمتنا المعاصرة مع الغرب اعتمادا على الأسئلة الحرة التى تدور بمخيلته عن أسباب ما نحن فيه من تدن حضارى .

هذه هى الأهداف التى آمل النجاح فى تحقيقها أو تحقيق جزء منها من خلال هذا الكتاب الذى صدر بعد تردد . . وضعت فيه كلمتى ـ وقد قاربت الستين من عمرى ـ لجيلنا الحالى أدعوه للبحث ورفض الاستسلام لواقعه هذا الاستسلام الذى يوشك أن يتأصل عاما بعد عام . . . والركون لأن نكون ضيوفا على العالم . . وعالة عليه . . وجزءا من تاريخه . . لا من صناعه ومحركيه وهو أمر مرفوض وشاذ . . وقد سمعنا تساؤلات عديدة تدور . . . بين المثقفين لماذا حدث هذا . . . وما هو الحل . . . ؟

وحتى لا يكون حديثنا صراخا بلا تحاور ، وتعبيرا بلا تفكر ، وانفعالات بلا فعل حاولت بهدوء وموضوعية طرح التساؤلات الآتية ولا شك فى أنها بعض مما يجول بخاطر أى مثقف معاصر .

١ ـ لماذا عجزت الأمة العربية والإسلامية عن مواكبة النهضة الأوروبية . . وهل هذا العجز كان تاما . . ؟ أم أنها لم تشارك بالقدر الكافى . . أو هناك إسهامات معتما عليها من المجتمع الدولى . . ؟ وهل جمود الحياة الفكرية منذ القرن السادس عشر له بذور احتضنها تراث الأمة فى زمن أسبق . . ؟

٢ ـ بالنسبة لنهضة أوروبا هل كان حسم الصراع الدينى مع الكنيسة والقضاء على فرص استغلال الدين دورا رئيسيا فى حدوث النهضة الأوروبية . . وفى المقابل الشرقى نجد أن استغلال الدين لصالح السلطة هو الصفة الغالبة لدينا خلال العصور المتأخرة ؟

٣ ـ هل كان لحدة الصراع الكنسى وديناميكية الحياة السياسية فى أعقابه أثر فى إثراء التجربة الأوروبية بخبرات مفيدة ؟

٤ ـ هل تقبل العقل الأوروبى للسلطة المتعددة الأقطاب أحد نواتج الجذور الديمقراطية الرومانية وتعدد الآلهة سواء الاغريقية أو الرومانية ؟ وفى المقابل الشرقى . . نجد أن فكرة الفرد القدوة . . والحاكم العادل . . وظل الله فى أرضه هى التى أبعدت العقل الاسلامى عن فكرة السلطة المتعددة الأقطاب ؟

٥ ـ هل كان لزعامة الأتراك للعالم الإسلامى وحداثة عهدهم نسبيا بالإسلام أثر فى صبغ دولتهم بصبغة دينية عسكرية أثرت فى عدم مواكبتهم لعصر إحياء العلوم فى القرن السادس عشر ؟

٦ ـ هل تعصب الأتراك العثمانيين للغة التركية واهمال العربية ـ وهى لغة التراث ـ وقصرها على الأمور الدينية سبب من أسباب الجمود الفكرى وعدم الانتفاع بتراث الأمة على وجه أفضل ؟ . . فليس من المعقول أن يعيش ابن خلدون جزءا من حياته فى القرن الخامس عشر وهو أعظم عالم تاريخ واجتماع فى العالم حتى القرن التاسع عشر (وهذا الوصف من موسوعة كولير الأمريكية ص ٣١٣) ولا يظهر له تلميذ أو نظير خلال أربعة قرون تالية . . ؟

٧ ـ هل أثرت الفنون عموما فى إحداث النهضة الأوروبية ؟ تلك الفنون التى ألهبت خيال المجتمعات الأوروبية وساعدت فى وصل تراثها وإحيائه من خلال مرئيات مجسدة أو مصورة . . كذلك الموسيقى التى تطورت لتصبح فنا مستقلا ولغة مشتركة بين الشعوب الأوروبية . . وفى المقابل لم تخدم الفنون الاسلامية برغم تقدمها وتفوقها الشعوب إلا فى أضيق الحدود .

٨ ـ هل لعبت المصادفات التاريخية دورا فى مسار التاريخ العلمى ؟

كل هذه التساؤلات وغيرها . . وغيرها . . تكون خلفية أى قارىء مثقف . . يعيش محنة أمته ويريد الخلاص . . انها أسئلة بلا إجابات محددة

فكل سؤال له أكثر من إجابة . . وقد تظهر فى ذهن القارىء إجابات مع رحلته مع هذا الكتاب وقد يسطع له ضوء باهر على جزئية صغيرة تكون له لبنة هامة على طريق الخروج من إحباطنا العام إزاء أزمتنا المعاصرة مع الغرب . . وبكل الموضوعية والحيدة نبدأ رحلتنا مع كيف وتحت أية ظروف تمكن هذا من ذاك . . . فلنستعرض المقدمات ونتأمل . . . ثم نفعل . . .

والله الموفق

الفصل الأول
جذور الصراع بين الشرق والغرب

قسم أول : القضية الأساسية

قسم ثان : بدايات التاريخ الأوروبى الحديث

قسم ثالث : ظهور العالم الإسلامى كقوة صاعدة فى القرن الثامن الميلادى

قسم رابع : أوروبا والعالم الإسلامى حتى القرن الحادى عشر

قسم خامس : الحروب الصليبية والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للأطراف المتصارعة .

القسم الأول
القضية الأساسية

فى المجتمعات البشرية صفة متأصلة قديمة تتمثل فى جنوح المجتمعات الأكثر قوة للسيطرة على الضعيفة منها ، وعند توفر قوة أكبر لهذه المجتمعات يتجه سعيها إلى تأسيس ممالك وإمبراطوريات وهناك نظريات تقول بنظام تعاقب الإمبراطوريات وهى نظريات لا نستطيع التسليم بها . . . ولا يعنينا الدخول فى جدل حولها وإنما قضيتنا الأساسية هى تبين كيفية وتحت أى ظروف تمكن الغرب بعد تطوير نوعياته من هزيمتنا هزائم مضطردة ومستمرة فى الثلاثة قرون الأخيرة . . وما يزال . . ذلك بعد عشرة - قرون من التنافس على مراكز القوة الدولية . . كان للشرق قصب السبق على الغرب معظم تلك القرون العشرة تجارة . . وصناعة . . وعلوم . . وفنون . ولكى نصطلح على مفهوم نحن . . هل نحن عرب الجزيرة . . أو المصريون . . أو بربر شمال أفريقيا . . أو عرب الشام . . أو الايرانيون . . والأتراك . . . الخ . أقترح أن ندعى اننا كل هؤلاء منذ اعتناق هذه الشعوب للدين الاسلامى الذى كان لب الحضارة الإسلامية التى صارعت الغرب البيزنطى واللاتينى قرابة ثلاثة عشر قرنا من الزمان وإذا كان القياس بالأثر الباقى كوحدة قياس فإن الاسلام أثبت معتقدات اعتنقها البشر حتى اليوم . . . رغم هزائم المسلمين . . . وهزيمة الحضارة الإسلامية نفسها التى هى مزيج من حضارات شرقية هندية فارسية مصرية مطعمة باليونانية أعيد صياغتها داخل بوتقة الاسلام وعاشت شعوب منطقتنا الواسعة رغم وجود أقليات دينية أخرى هذه الحضارة التى استمرت قوية فى مجملها نحو عشرة قرون قبل أن يعتريها الفتور .

ولا يزال الاسلام كتوجه عقائدى جاهزا لإعادة صياغة أية حضارة إنسانية معاصرة أو مستقبلية إذا ما توافرت الظروف المناسبة مع التأكيد على عدم إمكان عودة التاريخ للوراء وتكرار صوره الحضارية السابقة . . وإنما

الممكن هو أن يعيش المواطن المسلم حضارة معاصرة تهدف إلى الحياة أفضل فى إطار التوجه الإسلامى .

وربما نجد داخل هذا الكتاب ما قد يوحى بأن صراع الشرق والغرب كان صراعا دينيا خالصا وهذا ليس صحيحا تماما . . رغم أن التعصب الدينى لعب دورا كبيرا فى معظم فترات الصراع الحضارى بين مجتمعات شرقية وأخرى غربية متنافسة من أجل السيطرة والاستغلال والرفاهية على حساب الغير . . كما أن قضيتنا الأساسية أيضا تتحدد فى منهج حركة التاريخ وتحليل جزيئاته بهدف الخروج من الإحباط العام الذى تعيشه أمتنا العربية والاسلامية إزاء الهيمنة الغربية ، وهذا ليس مستحيلا . . فقد عاش الغرب نفسه مثل هذه الحال أو قريبا منها ، من إحباط عام وروح معنوية منكسرة من قبل فى فترة ما .

وتأمل معى أيها القارىء العزيز ما جاء فى كتاب المؤرخ المعاصر « كوينز بيرجر H.G.KOENIGS BERGER » فى كتابه عن التاريخ المبكر لأوروبا ص ٨٠ ، فيقول « كتب السفير الهولندى فى القسطنطينية الى بلده فى أواخر القرن السادس عشر يقول :

فى جانبهم موارد إمبراطورية ضخمة ، وتمرس ، وخبرة فى القتال ، واعتياد على تحقيق الانتصارات بفضل قوة الاحتمال والترابط والنظام والاقتصاد فى النفقات واليقظة التامة » . .

أما فى جانبنا نحن فتجد الفقر العام والترف الخاص والروح المنكسرة والتراخى والقصور فى التدريب فهل يمكن أن نشك فيما تكون عليه النتائج ؟ إنتهى النص .

On their side are the resources of a mighty empire wrote the imperial ambassador at Constantinople in 1560, the Flemish humanist, Ghislain de Busbecq... experience and practice in fighting ... habituation to civtory, endurance of toil unity, order, discipline, frugality and watchfulness. On our side is public poverty, private luxury... broken spirit, lack of endurance and training ... Can we doubt what the result will be£[16]

هذا الاحباط العام الأوروبى إزاء الصحوة العثمانية الإسلامية يتشابه مع حالنا اليوم أمام الغرب المنفرد بالهيمنة على العالم ـ وعلينا أن نعلم ونتعلم وندرس كيف وتحت أية ظروف تمكن الغرب من الخروج تدريجيا من هذا الإحباط وهذه الروح المعنوية المنكسرة تدريجيا منذ القرن السادس عشر حتى تمكن من الهيمنة على العالم كله فى نهايات القرن العشرين . . هذا هو الموضوع العام الذى يجب أن ينشغل به المفكرون والباحثون وأقسام التاريخ بالجامعات بهدف المعرفة ثم التبسيط لشعوبنا لعلنا نضع أنفسنا على الطريق الصحيح . . وليس بهدف تحقيق درجات علمية أو عمل بحوث توضع داخل الأدراج . . ولا يمكن لأحد أن يدعى سهولة الموضوع . . وأن مجرد معرفة مسار التاريخ وظروف صناعة جزيئاته سيضعنا وحده على المسار الصحيح ولكننا نزعم أن ذلك سوف يعطينا مؤشرات يمكن القياس عليها فالتاريخ ذو اتجاه واحد ولا يتكرر . .

ولعل القارىء يتساءل لماذا هذه القرون الثلاثة بالذات ؟ . . . أزعم أن عصر إحياء العلوم أو كما يسمى عصر النهضة بدأ فى القرن السادس عشر إلا أن الروح الوثابة التى ظهرت فى المدن الإيطالية أولا ثم فى أوروبا كارادة تغيير عامة بدت واضحة كل الوضوح فى منتصف القرن السابع عشر . . كما أنه تاريخ بدء الانحسار العام للامبراطورية العثمانية كإرادة دولية فقد بلغت أقصى اتساع لها فى النصف الثانى من القرن السابع عشر عندما كان على فينا (عاصمة النمسا) أن تذود عن حياتها أمام الحصار العثمانى عام ١٦٨٣ م ومنذ هذا التاريخ وهى فى موقف الدفاع .

ومن المفيد لتوضيح فكرة قضيتنا الأساسية وما لها من أهمية قصوى . . عرض ما كتبه المؤرخ نفسه تحت عنوان أوروبا وجيرانها وبقية العالم فى نفس الكتاب فيقول حرفيا[1] :

---

(١) HGKOENIGS BERGER أستاذ التاريخ بالكلية الملكية جامعة لندن حتى عام ١٩٨٤ .

« إن نقطة البداية لمسيرة التاريخ الأوروبى هو سقوط روما بيد القبائل الجرمانية المتبربرة ورغم ذلك الحادث المفجع إلا أنه خلال الألف والستمائة عام التى تعاقبت بعد ذلك انبسط الركام وانفرجت الغيوم مكونة وجودا حضاريا جديدا ظلل القارة الأوروبية بأسرها ثم وطد أقدامه فى قارتى أمريكا واستراليا . . كما لم يلبث بشكل أو بآخر أن بسط سلطانه على بقية العالم وخلال الألف عام الأولى ظلت القارة فى موقف الدفاع ضد العرب المسلمين على امتداد حدودها على البحر المتوسط جنوبا ، وضد الملاحين النروجيين السكندنافيين شمالا وغربا ، وفى مواجهة الغزوات المتعاقبة التى كانت تشنها القبائل الآسيوية المختلفة من الشرق مثل قبائل الهون فى القرن الخامس إلى قبائل الآفار والهنفار والمغول ثم مؤخرا الأتراك وبرغم الخسائر التى لحقت بالأوروبيين فقد ظل دفاعهم عن قلب أوروبا اللاتينية جامدا لا يلين . . أما ما فعله الأوروبيون بهؤلاء الغزاة فقد صدوا الهون والآفار وتشربوهم كما يتشرب النشاف المداد ، وأدخلوا الفايكنج والهنفار الدين المسيحى ، وهضموهم مثلما يهضم الجسم الطعام . . لكن الأوروبيين فى المحاولتين الكبيرتين اللتين قاموا بهما لاستعادة الأقاليم التى استولى عليها المسلمون فلم تنجح إلا واحدة منها إذ استرد الأوروبيون شبه جزيرة أيبريا وكذلك جزيرة البحر المتوسط الكبيرة (صقلية) بينما خابت المحاولة الكبيرة الأخرى والتى هدف الصليبيون منها إلى استرداد بيت المقدس واقامة دولة مسيحية على شواطىء البحر المتوسط الشرقية . وقد كانت هذه الخيبة أشد نكبة أصابت أوروبا . إذ كان اللاتينيون المسيحيون قد قاموا بتوجيه ضربة قاتلة إلى الجزء الشرقى الباقى من الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التى كانت تمثل العائق الأكبر الفعال ضد الإسلام فى الجناح الشرقى لأوروبا . الأمر الذى سهل على الأتراك العثمانيين فيما بعد اختراق آسيا الصغرى وفتح القسطنطينية . والوصول سريعا إلى كل شبه جزيرة البلقان التى لم تفلح أوروبا فى استنقاذ أغلب البلقان من الأتراك إلا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين فيما عدا القسطنطينية وآسيا الصغرى . . غير أن النظرة المسيحية لاستئناف الغزو لم تعد منذ ذلك الحين (القرن الثامن عشر وما بعده) القوة الرئيسة المحركة . .

فإن تركيا ذاتها لم تلبث أن شاكلت أوروبا وتشبهت بها بصورة تدريجية . إلى جانب ذلك فقد حدث خلال القرن الخامس عشر - وبينما كان الأوروبيون ما يزالون فى موقف الدفاع ضد الاسلام فى البحر المتوسط والبلقان - أن استطاعوا النفاذ بنجاح خارج قاراتهم الشبيهة بالقلعة المحاصرة . إذ أبحروا إلى أمريكا وحول أفريقيا إلى القارة الآسيوية شرقها وغربها . . ثم تمكنوا فى الأربعة قرون التالية من استيطان القارة الأمريكية واستراليا ، وفتح إمبراطورية الهند والهند الصينية وأندونيسيا ، كما أعادوا فتح ما كان بقى من جبال الأورال فى روسيا حتى المحيط الباسفيكى ، وقاموا بتقسيم أفريقيا جميعها بين حفنة من دولهم الأوروبية ثم بدون غزو فعلى أو استيطان تيسر لهم فرض تجاراتهم على إمبراطورية الصين وحمل اليابان على فتح أبوابها للتجارة والتكنولوجيا الغربية .
هذا ما ذكره المؤلف حرفيا فى كتابه :
EARLY MODERN EUROPE 1500 - 1789

إن هذه الفقرة من هذا الكتاب رغم روح الاستعلاء الواضحة بين سطورها . . دفعتنى أكثر وشوقتنى لتبين كيف وتحت أية ظروف حدث هذا عبر الفترات الزمنية والتعرف على أهم العوامل المؤثرة على مسار التاريخ من بداية التاريخ الأوروبى المفترض وحتى أوائل القرن الثامن كفترة أولى وهى فترة دخول المسيحية لأوروبا والصراعات المذهبية الأولية . . وتكوين الهوية الدينية التى اكتملت فى بعض المجتمعات الأوروبية فى الغرب اللاتينى ولم تكتمل فى البعض الآخر ، ثم الفترة الثانية حتى القرن الحادى عشر الميلادى وهى فترة ازدهار الحضارة الاسلامية فى شبه جزيرة أيبريا وجزر البحر المتوسط وأثر ذلك على أحوال أوروبا الداخلية ، ثم فترة التكتل الأوروبى لإحياء الامبراطورية الرومانية المقدسة تحت أعلام كاثوليكية من القرن الثانى عشر إلى الخامس عشر . . وما تخللها من حروب صليبية وردود أفعال إسلامية ومسيحية هامة ، مثل : سقوط القسطنطينية فى أيدى الأتراك العثمانيين وإنهاء الوجود الاسلامى فى شبه جزيرة أيبريا ، ثم فترة عصر النهضة من القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السابع عشر ، والصراع على طرق التجارة العالمية والانتعاش

الاقتصادى الأوروبى ، والكشوف الجغرافية الهامة ، وتكوين إمبراطوريات الغرب فيها وراء البحار ثم الفترة الأخيرة والهامة من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين وتصاعد السيطرة الأوروبية وتتالى الهزائم حتى هيمنة الغرب على العالم .

فمعرفة الكيفية والظروف هى القضية الأساسية . . التى يجب فهمها وتبسيطها لشباب أمتنا .

* * *

القسم الثانى
بدايات التاريخ الحديث

ما قبل سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية .

يتفق معظم المؤرخين على اعتبار انهيار الامبراطورية الرومانية الغربية وسقوط عاصمتها روما بأيدى القبائل الجرمانية فى القرن الخامس الميلادى (٤٧٦ م) هو بداية التاريخ الأوروبى ويعنى ذلك أن التاريخ الأوروبى يمتد ستة عشر قرنا من الزمان يمكن تقسيمها إلى حقب زمنية حسب أهمية العوامل المؤثرة على مسار التاريخ العالمى كما أسلفنا .

ولكن قبل هذا السقوط كانت هناك الإمبراطورية الرومانية العظيمة الشأن البالغة الاتساع . . حيث قامت مدنية زاهرة بعلومها وآدابها وفنونها وقانونها الرومانى الذى ما زال يدرس حتى اليوم . لكنهم كانوا يقسمون العالم إلى رومانيين وغير رومانيين . وما ينطبق على الرومان ليس من حق الآخرين . فهم سادة العالم بذخ . . وترف . . وشرف . . وتقاليد . . ونظم ادارة . . ونظم حكم كونت الأساس النظرى لحكم الدول الأوروبية حتى وقت قريب . وكانوا وثنيين وغير متدينين .

وإذا كان الأغريق السابقون عليهم فى التاريخ الانسانى أرباب العلوم والفنون والمبادىء والحكمة والمنطق ، والمدينة الفاضلة وأصحاب الألياذة وآلهة الأوليمب . . فقد كان الرومان أرباب التشريع والإدارة والنظام .

وقد أنقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية . ظلت الإمبراطورية الشرقية ـ التى عمرت بعد شقيقتها ألف عام أخرى ـ ذات صبغة هيلينية مقدونية السمات . وسوف نتعرض لذلك فيما بعد .

ظهور المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية :

جاءت المسيحية السمحاء من الشرق إلى روما . . على أيدى الرسولين

بطرس ، وبولس المؤمنين بعقيدة سماوية . . فاضطهدت أبشع ما يكون الاضطهاد فى الإمبراطورية الرومانية وولاياتها . . وخاصة مصر . . ولابد أن نشير أن أول إمبراطور أوقف اضطهاد المسيحيين هو قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧ م) رغم أنه لم يعتنق المسيحية إلا وهو على فراش الموت [١] .

وكانت المسيحية قد وصلت أوروبا فى عدة صور مذهبية مما سبب انقسامات دينية فى شعوب أوروبا أخطرها المذهب الآريوسى السكندرى . . أول من أثار الجدل حول طبيعة المسيح وقد انتشر هذا المذهب فى الشعوب الأقل تحضراً فى شرق أوروبا وجنوب فرنسا وأسبانيا ولكن روما الكاثوليكية - فى رعاية جثماني القديسين بطرس وبولس تمكنت فى عام ٣٢٣ م فى مجمع نيقية من اعتبار هذا المذهب هرطقة يجب محاربتها . وكانت الإمبراطورية فى عصورها المتأخرة تعانى بسبب غارات الهون وقبائل الآفار والهنفار حتى سقطت على يد القبائل الجرمانية شبه البربرية . . وخلال ثلاثة القرون التالية لسقوط روما كانت أوروبا الغربية فى حالة تشبه الفوضى تحت سيطرة القبائل الجرمانية الأقل تحضرا من الرومان الذين ذهبت دولتهم ، ولكن هذا لم يمنع قيام أسر حاكمة جرمانية الأصل رومانية الولاء ومتعصبة للمذهب الكاثوليكى المدعوم من البابوية فى روما . . وقد تمثل ذلك فى قيام مملكة الفرنجة الميروفنجيين ٤٨١ - ٧١٦ م فى وسط أوروبا . كما أسس القوط الغربيون الذين كانوا على المذهب الأريوسى ممالك لهم فى شمال إيطاليا وجنوب فرنسا ، وفى عام ٥٠٧ م هزمهم الفرنجة الميروفنجيين وتم طردهم إلى اسبانيا حيث تحولوا فيما بعد إلى الكاثوليكية ، وأجبروا سكان جزيرة أيبريا (أسبانيا والبرتغال) على أعتناق الكاثوليكية قبل الفتح الإسلامى بمائة وأربعة وعشرين عاما فقط قبل تأصل العقيدة الكاثوليكية فى وجدان الشعب الأيبيرى وربما ساعد ذلك الفتح العربى .

---

(١) كتاب أوروبا فى العصور الوسطى هـ . فشر

الإمبراطورية البيزنطية :

ظلت الإمبراطورية الرومانية البيزنطية قوة دولية يتعاقب على حكمها أباطرة يسيطرون على كنيستها الشرقية بخلاف الحال فى روما حيث نافست الكنيسة السلطة الزمنية بل وسيطرت عليها ردحا من الزمن . وقد ظلت الإمبراطورية البيزنطية قوية فى مجمل فتراتها ومتماسكة رغم فقدها معظم أملاكها فى الشرق حتى القرن الثالث عشر الميلادى . . حيث بدأت فى الأنحلال والضعف ثم سقطت نهائيا على يد الأتراك العثمانيين عام ١٤٥٣ م .

أما فى الماضى البعيد وقبل ظهور الإسلام بقليل كان الصراع الدولى على أشده بين الإمبراطورية البيزنطية المسيحية وبين الإمبراطورية الفارسية . وقد حدث أن غزا الفرس ولايات الإمبراطورية فى الشام . . ولكن الإمبراطور هرقل استعاد ما سبق فقده عام ٦٣٠ م وفى أواخر عهد هذا الإمبراطور العظيم الذى حاول عقد مصالحة بين المذاهب المسيحية ولكنه فشل ثم ظهر ، المسلمون كقوة صاعدة تهدد أطراف الإمبراطورية فى مصر والشام وتدعوه شخصيا للإسلام . وفى عام ٦٤١ م توفى هرقل ، ثم تعاقب على عرش الإمبراطورية بعده أباطرة ليسوا على مستوى الأحداث الجارية فى ذلك الوقت والتى تداعت أحداثها سريعا بقضاء المسلمين على الإمبراطورية الفارسية تماما . . واقتطاع من أملاك الإمبراطورية البيزنطية فى مصر والشام وشمال أفريقيا فى سنوات قليلة . . وقد شهد البلاط البيزنطى فى أواخر القرن السابع الميلادى فترة من الفتن والاغتيالات للأباطرة ، وسادت حالة من الفوضى حتى يتولى الإمبراطور الشاب ليو الايسورى الذى دافع عن القسطنطينية نفسها ضد حصار المسلمين عام ٧١٧ م . وكانت القسطنطينية منارة العالم حضارة ، وثقافة . . وتعد الإمبراطورية البيزنطية متصلة التراث نسبيا بالمقارنة لأوروبا اللاتينية . وأستمر هذا الوجه المضىء لها نحو خمسة قرون إن لم يكن أكثر بعد سقوط روما . . كما كان تراثها الثقافى من أهم المصادر التى نهلت منها الأمة الإسلامية الصاعدة فى حركة ترجمة كبيرة فى القرن التاسع الميلادى .

بقية الشعوب الأوروبية حتى القرن الثامن الميلادى :

كانت بقية أوروبا من روس . . ومجريين . . وبلقانيين . . وصقالبة . . عديمى الهوية الدينية أو السياسية ويمكننا القول دون مبالغة انهم كانوا نصف وثنيين ونصف مسيحيين وأن الجزء المسيحى المترسب فى وجدان هذه الشعوب كان آريوسيا غير واضح المعالم . فقد كانت قبائل الآقار غير المتحضرة قبائل على الفطرة تعيش على السلب والنهب قبل أن يقضى عليهم الامبراطور شارلمان فى أواخر القرن الثامن الميلادى . . ولم تقم كيانات سياسية هامة على غرار تلك التى قامت فى أوروبا اللاتينية فى ظل هوية دينية كاثوليكية قوية . ولهذا فمن الأخطاء الشائعة لدى المؤرخين الأوروبيين إعطاء شارل المطرقة الذى انتصر على المسلمين فى معركة بلاط الشهداء جنوب فرنسا ٧٣٢ م أهمية كبيرة بأعتباره البطل الذى أوقف انتشار الإسلام فى الغرب والصحيح أن الإمبراطور ليو الأيسورى أكثر أهمية فى هذا الموضوع . ليس بسبب الدفاع عن القسطنطينية عام ٧١٧ م ضد الأمويين . . ولكن لأنه منع ما كان سوف يحدث حتما . . بعد سقوط القسطنطينية فى هذا الوقت المبكر على أيدى المسلمين المتحمسين لنشر عقيدتهم بين شعوب ليس لها هوية سياسية أودينية ، الأمر الذى كان سيجعل انتشار الإسلام سهلا للغاية . أما فى الغرب وبافتراض انتصار المسلمين فى بلاط الشهداء فقد كان أمام انتشار الإسلام فى فرنسا صعوبات جمة حيث كانت شعوب دولة الفرنجة فى فرنسا ذات هوية سياسية محددة علاوة على هوية دينية كاثوليكية كاملة النمو .

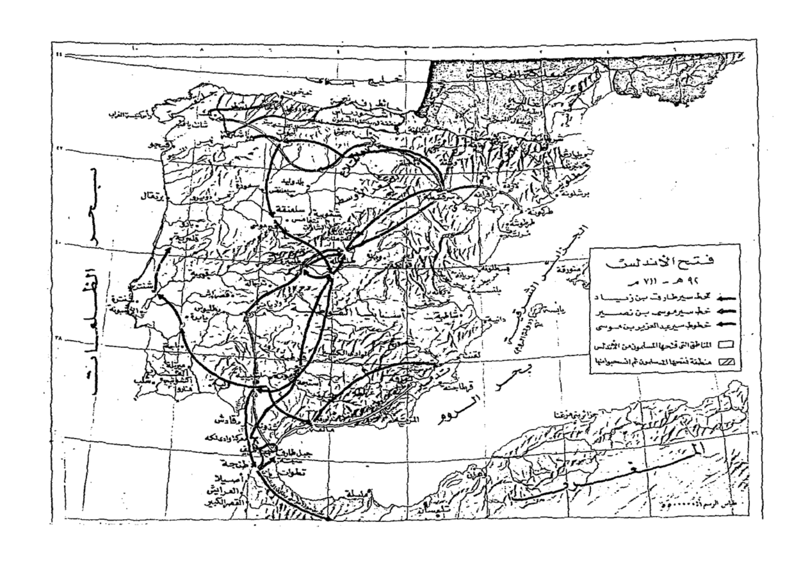
* * *

القسم الثالث
ظهور العالم الإسلامى كقوة صاعدة
فى القرن الثامن الميلادى

الموجة الأولى للتوسع الإسلامى :

انطلق المسلمون فى أسرع زحف عرفه التاريخ فاتحين أجزاء كبيرة من العالم القديم . فخلال ما يقرب من قرن ملكوا الامبراطورية الفارسية كلها ، وتوغلوا فى شرقها حتى نهر السند . وغرب الصين ، ومعظم أملاك الإمبراطورية الرومانية البيزنطية ، وكل دولة القوط الغربية فى شبه جزيرة أيبريا . . ومن المهم التأكيد على أن التوسع الإسلامى لم يكن بالضرورة بالفتح العسكرى كموجات التوسع فى افريقيا وجنوب آسيا . وقد حدث التوسع الإسلامى فى أربع موجات قاد الجنس العربى الموجة الأولى . أما باقى الموجات التى شملت الهند وافريقيا المدارية والاستوائية وآسيا الصغرى وجنوب شرقى آسيا فكانت على يد أجناس أخرى . وما يعنينا فى هذا الفصل هو حركة التوسع الأولى التى خرجت من المدينة فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، سبتمبر ٦٢٢ م . . وانتهت فى ٢٣ ذى الحجة ٢٣٢ هـ ، يوليو ٨٤٧ م . التى انتهت بانتهاء العصر العباسى الأول بوفاة الخليفة الواثق بالله ابن المعتصم وتغطى هذه الفترة عصر الخلافة الراشدة ، والدولة الأموية والدولة العباسية الأولى . والبعض يسمى هذه الفترة بفترة الدولة العامة أو المركزية التى تحكم من غربى الصين إلى شمال أسبانيا إلى المحيط الأطلسى وجزر البحر المتوسط . واستمر ذلك تقريبا حتى سقوط الدولة الأموية فى الشرق ١٣٢ هـ ، ٧٤٩ م .

ولابد من التقرير بأن الدولة الأموية العربية هى التى حملت لواء الإسلام لأطراف الأرض . ولا يدانيها فى ذلك أية دولة أخرى مهما بلغت فتوحاتها ، فقوة الانتشار السريع لراية الإسلام كانت عربية خالصة . وقد احتك العرب


فتح الأندلس
٩٢ هـ - ٧١١ م
خط سير طارق بن زياد
خط سير موسى بن نصير
خطوط سير عبد العزيز بن موسى
المناطق التي فتحها المسلمون من الأندلس
منطقة فتحها المسلمون ثم انسحبوا منها
بحر الظلمات
بحر الروم
الجزائر الشرقية
المغرب
خليج بسكاي
برشلونة
طركونة
برتقال
طليطلة
قرطاجنة
جبل طارق
طنجة
تطوان
أصيلا
العرايش
القصر الكبير

بأمم أخرى ذات تراث حضارى مختلف . . وقد أنبهر العرب بما لدى الآخرين من معرفة وحضارة . ولم يكن لدى العرب إلا الإسلام الذى أعطاهم الثقة بالنفس والاعتزاز الذى يواجهون به الأمم الأخرى ذات التراث الأكثر عراقة . وكانت الدولة الأموية فى أول عهدها على درجة كبيرة من البداوة والسذاجة . . فى المدنية . . ولكنها تطورت فى أواخر عهدها . وكان العرب يعاملون الآخرين بحذر واستعلاء وانبهار . . وبدأت فى الدولة الأموية فى أواخر أيامها حركة علمية ودينية وبعض ترجمات فردية كانت مقصورة على العلوم العملية دون العلوم العقلية . . أما الانفتاح الحقيقى لحفظ التراث الانسانى فى كافة الميادين . فقد حدث فى العصر العباسى .

ويمكننا القول بأن العصر العباسى الأول كان عصر احياء العلوم التى حفظ للبشرية تراثها القديم حتى كان أواخر القرن الثامن الميلادى . . أطلت فيه على العالم تباشر حضارة إسلامية متضمنة علوم وفلسفة ورياضات الهند ، وآداب وعلوم فارس . وحكمة وفلسفة اليونان .

القوى الدولية حتى نهاية القرن الثامن الميلادى :

كانت أكبر القوى السياسية هى الدولة العباسية التى تواجه الامبراطورية البيزنطية فى الشرق وامبراطورية شارلمان وتواجهها الدولة الأموية فى شبه جزيرة أيبريا . وأهم أحداث القرن الثامن هو وصول المد الإسلامى إلى أقصى مداه فى العالم المسيحى آنئذ . فقد حاصر الأمويون القسطنطينية عام ٧١٧ م . ولم يفلحوا فى فتحها كذلك توقفوا فى فرنسا عقب موقعة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م . وما لبث المسلمون أن تخلوا عن فكرة التوسع فى فرنسا بعد تواجد دام أكثر من أربعين عاما ، وانسحبوا منها مكتفين بشبه جزيرة أيبريا .

أما العالم المسيحى فكانت الإمبراطورية البيزنطية على احتكاك دائم بالخلافة العباسية فى لعبة توازن القوى التى كانت تدار بحكمة واقتدار أحيانا عندما تكون رؤوس الحكم على مستوى عال من الفهم السياسى . . مثل عهد الامبراطور نيقفور فى بيزنطية ، وهارون الرشيد فى بغداد ، والخليفة الأموى

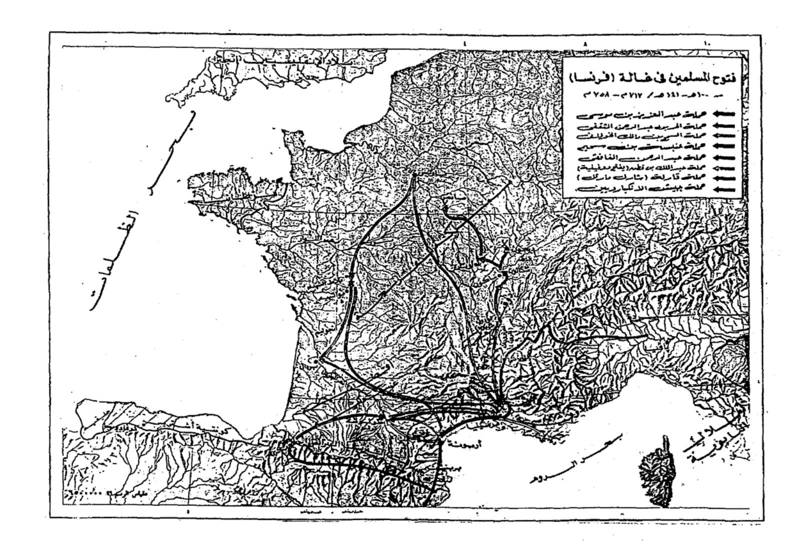
عبد الرحمن الداخل فى قرطبة ، والامبراطور شارلمان فى أوروبا اللاتينية . . كانت الامبراطورية البيزنطية تشابه الخلافة العباسية فى أن رأس الحكم فى كليهما يسيطر على السلطة الدينية والزمنية أو يملكها معا كما فى حالة الخلافة العباسية . أما فى الغرب اللاتينى فكانت السلطة الزمنية خاضعة أحيانا للسلطة الدينية ومتمردة عليها أحيانا أخرى .

وبنهاية القرن الثامن تمكن البابا « ليو الثالث » من دعم فكرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وجسّد هذا فى ليلة عيد الميلاد عام ٨٠٠ م عندما توج بيده شارلمان امبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة .

ويذكر التاريخ فى هذه الحقبة من الزمن تبادل السفارات بين شارلمان وهارون الرشيد ، وعلاقتهما الودية كمحور إسلامى ـ مسيحى موجه ضد محور إسلامى ـ مسيحى آخر . مكون من الامبراطورية البيزنطية والخلافة الأموية فى الأندلس .

التأثير المتبادل بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى :

تأثر العالم الإسلامى فى الشرق بالإمبراطورية البيزنطية مقتبسا منها الكثير من نظم الإدارة ، علاوة على حركة الترجمة العلمية . أما من الناحية العقائدية فكان التأثير المتبادل بين العالم المسيحى والعالم الإسلامى أكثر وضوحا ، وخاصة فى الغرب اللاتينى . فقد ظهرت فى الغرب اللاتينى حركات دينية تأثرت بالإسلام . . فعلى سبيل المثال ظهرت فى سبتمانيا (جنوب غرب فرنسا) حركة تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القس ، كذلك حركة أخرى تدعو إلى تحطيم الصلبان والصور والتماثيل الدينية . . وقد أصدر الإمبراطور الرومانى « ليو الثالث » أمراً عام ٧٢٦ م يحرم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأعقبه بأمر آخر عام ٧٣٠ م يعتبر الأتيان بهذه الأفعال وثنية خالصة . وكذلك كان قسطنطين الخامس وليو الرابع ، على حين كان البابا جريجورى الثانى والثالث وجرمانيوس بطريرك القسطنطينية والإمبراطوره إيرينى من مؤيدى الصور والتماثيل . . وجرى بين هذه الطوائف نزاع شديد لا محل لتفصيله . .



فتوح المسلمين في غالة (فرنسا)
١٠٠هـ - ١٤١هـ / ٧١٧م - ٧٥٨م
حملة عبد العزيز بن موسى
حملة عنبسة بن سحيم
حملة عبد الرحمن الغافقي
بحر الظلمات
بحر الروم

وهناك مثال آخر هو كلوديوس أسقف تورين عام ٨٢٨ م ، الذى ولد ونشأ فى الأندلس الإسلامية وكان يحرق الصور والصلبان .

أما تأثير الثقافة النصرانية على العالم الإسلامى فقد تسرب منها الشىء الكثير فى العصر العباسى والأندلسى . فعلى سبيل المثال الشروح والقصص التفصيلية لما ورد فى القرآن الكريم إجمالا فى نفس الموضوع وقد جاء هذا عن طريق النصارى من الموالى الذين أسلموا ، وكذلك من نصارى العرب من قبائل تغلب ونجران الذين كانوا ما يزالون متأثرين بثقافتهم الدينية المسيحية التى تحوى الكثير من القصص التفصيلية عن الأنبياء ، كذلك أدخلت أقوال من الأناجيل على أنها أحاديث للرسول ﷺ . فمثلا من المعروف أن تفضيل الفقراء على الأغنياء شديد الوضوح فى الثقافة الدينية المسيحية وهناك حديث منسوب للرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام . . مثال آخر لحديث آخر منسوب إليه - صلى الله عليه وسلم - يقول : (كونوا بلهاء كالحمام مما يشبه آية فى أنجيل متى تقول ها أنا أرسلكم وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام . . »[1] .

وغير ذلك كثير . منه ما وضع عن غير قصد كناتج لامتزاج الثقافات ومنه مادسّ بغرض شرير لاحداث بلبلة باستغلال مناخ الحرية الدينية فى العصر العباسى والأندلسى ، وقد كانت الممالك الإسلامية تعج بأهل الكتاب فقد بلغ عدد اليهود مثلا كما قدره الرحالة بنيامين اليهودى عام ١١٦٥ م نحو ثلثمائة ألف نسمة ، وكان ببغداد وحدها خمسة عشر ألفا ، وهذا بالطبع بخلاف الاسرائليات التى دسّها اليهود فى التراث الإسلامى .

* * *

---

(١) كتاب ضحى الأسلام لأحمد أمين ص ٣٥٩ الطبعة الثالثة

القسم الرابع
أوروبا والعالم الإسلامي حتى القرن الحادى عشر

الحركة الدينية والسياسية فى أوروبا :

استمر البابوات فى روما يدفعون بحركة التبشير بالمسيحية الكاثوليكية فى الاتجاه الشرقى من أوروبا بعد أن تم تأصلها فى فرنسا . فوصلت المسيحية إلى ألمانيا فى القرن الثامن الميلادى ، ولم تصطدم البعوث التبشيرية بأية عقبة ثقافية تراثية ، فقد كان المبشرون يقومون بعملهم بين قوم على الفطرة لا يعرفون من اللغة اللاتينية أو الثقافة الرومانية القديمة وأدابها إلا مايتعلمونه على أيدى المبشرين . والحقيقة أن الفضل كل الفضل يرجع للبابوات/. فهم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية فى ايطاليا . . وهم الذين حموا روما من اللمبارديين ويدأ الكرسى البابوى كأنه منارة مضيئة وسط عاصفة من الإغارات البربرية . وكان لوجود جثمانى القديسين الرسولين بولس ومرقص أثر بالغ فى اعتبار روما مدينة محروسة مميزة حيث سيبعث هذان الرسولان من قبرهما فى روما ليقفا أمام المسيح . ومن هنا كانت الكنيسة الغربية فى روما راسخة الوجود فى وجدان الكاثوليكيين الذين زاد حماسهم الدينى مؤكدين قوة الهوية الدينية الكاثوليكية للعديد من شعوب أوروبا مما سبب ظهور كيانات سياسية خاضعة للكنيسة . وفى سبيل ذلك قام الإمبراطور شارلمان بحملات بلغ عددها ثلاثا وخمسين حملة ، وجهها فى جميع الاتجاهات بما فى ذلك أسبانيا الأموية التى فشل فيها . وقد شملت حملاته العسكرية بلاد الدانيين ـ السلافيين الآفار ـ السكسون اللمبارديين . . ومن نتائج أعماله أن تمكن فعلا من ادخال السكسون فى المسيحية . . أما الآفار فقد قضى عليهم تماما وشتت شملهم . . وامتد النفوذ الفرنجى حاملا فى طياته بذور الحضارة اللاتينية شرقا صوب الأراضى التى هى الآن بولندا ـ بوهيميا ـ النمسا ـ المجر ، وظهرت

ألمانيا ككيان سياسى خاضع للبابا وأساقفته . . وقد خرج من هذا الكيان السياسى أباطرة عظام للإمبراطورية الرومانية المقدسة فيما بعد .

الإمبراطورية الرومانية المقدسة :

إن فكرة بعث الحضارة الرومانية اللاتينية بعد ربطها بالمسيحية الكاثوليكية بين شعوب غير رومانية وجعلهم يتعصبون للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، أمر قد صنعه البابوات بحكمة واقتدار خارق . لأنه من المعروف أنه حتى أواخر القرن الرابع الميلادى . كانت الامبراطورية الرومانية لا زالت على وثنيتها . وخلال قرن واحد ظهر القديس أوجستين بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية يبشر للناس بقرب نهاية الدنيا لأنه ليس بعد الإمبراطورية الرومانية إلا المسيح الدجال . هكذا . وقد حاول شارلمان النهوض بالعالم المسيحى اللاتينى فأصدر أوامره للأسقفيات والآديرة بتعلم القراءة والكتابة ، كما حث على كتابة الكتب المقدسة بصورة واضحة يسهل قراءتها . فكان شارلمان يعتقد أن الكتب المقدسة فيها كل شىء لهدى الانسان ومفاتيح الحق ، ولكن امبراطورية شارلمان لم تستمر بعد وفاته وعاد الظلام يخيم على أوروبا اللاتينية قرنين كاملين ، فقد تدهورت البابوية خلال هذين القرنين حيث لم تكن البابوية منزهة عن الشبهات . وظلت أوروبا مسرحاً للشهوات الجامحة والأطماع والخرافات . فكان الحماس الدينى تعصبا جاهلا ودخلت الكنيسة فى صراع مع السلطة الزمنية ملوكا وأباطرة مما أفقد البابوية كثيراً من الهيبة خلال هذا الصراع ، رغم استمرار حركة التبشير . وقد أقنع البابوات الشعوب المسيحية بأن المسلمين وثنيون ، معتدون ، وأشاعوا الكثير من الصفات المنحطة عنهم مثل الهراطقه الآريوسيين الذين تم القضاء عليهم وقد نجح البابوات خلال القرن الحادى عشر فى خلق رأى عام أوروبى لاتينى ينادى بالجهاد المقدس ضد الوثنيين المسلمين وإحياء الإمبراطورية الرومانية المقدسة .

أهل الشمال السويديون - الفايكنج (دانيون ونروجيون) :

قام السويديون بتهديد الإمبراطورية البيزنطية خلال القرن التاسع والعاشر أربع مرات بأساطيلهم القوية . وكانت بيزنطة بحكمتها تارة ، وبقوتها تارة أخرى تتعامل معهم حتى تمكنت من احتوائهم كمرتزقة يعملون لحسابها ، أما الفايكنج فقد اتجهوا إلى غرب أوروبا يسلبون وينهبون الكنائس خاصة فى انجلترا وايرلندا وفرنسا . وكانت غاراتهم للتخريب والهدم حتى دخلوا المسيحية مع باقى أهل الشمال . وقد دخلوها من باب المسيحية الرومانية اللاتينية فى أواخر القرن العاشر الميلادى . حتى أن أحد ملوكهم العظام « كانوت الاسكندناف » حرص بعد تملكه على انجلترا - على أن يبدو سكسونيا أكثر من السكسون ولاتينيا أكثر من البابا . وأعقب الفايكنج النورمان من أهل الشمال . وكانت لهم قوة بحرية أيضا استغلها البابوات فى القرن الحادى عشر فى تخليص إيطاليا من الوجود البيزنطى ، كما استرد النورمان جزيرة صقلية من المسلمين فى منتصف القرن الحادى عشر .

الإمبراطورية البيزنطية :

كانت بيزنطة متألقة فى القرنين التاسع والعاشر وجزء من الحادى عشر تحت حكم أباطرة مقدونيين (٨٦٧ - ١٠٥٩) مثل نقفور فوقاس . وقد توفرت لهذه الإمبراطورية طبقة حاذقة من الموظفين ، وإدارة مالية ، ونظام قضائى ، وحنكة ودبلوماسية عظيمة فى التعامل مع الشعوب الأخرى . وكانت علاقة القسطنطينية بروما تحكمها عقد دينية ترجع للقرن الثانى الميلادى حيث كان اللاتينيون يحتقرون البيزنطيين ، وكان هناك شاعر رومانى ساخر تخصص فى الانتقاص من قدر الأغريق القدماء بالهجاء المقذع (روما كانت عاصمة أقوى كيان سياسى فى القرن الثانى الميلادى) واستمرت هذه الحال حتى بعد سقوط روما . . أما البيزنطيون بعد سقوط روما فكانوا يعتقدون أنهم ليسوا ورثة الأغريق فحسب بل ورثة الإمبراطورية الرومانية أيضا ، أما الفرنجة

والنورمان والألمان فهم فروع من شجرة البرابرة . كما اعتبروا امبراطورية شارلمان اغتصابا وفحا من الغرب اللاتينى . هذا بالاضافة إلى الخلافات الكنيسية وقد انقطعت العلاقات تماما بين بيزنطة وروما عام ١٠٥٣ م .

أما بيزنطة فى نظر الغرب اللاتينى فقد كانت ذات صفتين متباينتين :

الأولى : إنها دولة مسيحية تواجه أعداء غير مسيحيين وبالتالى يمكن مساعدتها .

والثانية : إنها دولة ملونة بالهرطقة متحدية لروما معادية لكل حركة تبشيرية كاثوليكية فى الجنوب الشرقى من أوروبا . وقد ذهب النورمان إلى الرأى القائل بأن أسهل طريقة للتفاهم مع بيزنطة . هى خلع الامبراطور وفتح القسطنطينية . وقد تحقق ذلك فعلا فيما بعد عندما تحولت الحملة الصليبية الرابعة عن غرضها الصليبى ونهبت القسطنطينية عام ١٢٠٤ م وظلت تحت الحكم اللاتينى خمسين عاماً . والفرق الجوهرى بين الإمبراطورية البيزنطية والغرب اللاتينى يتخلص فى الآتى :

(أ) خضوع الكنيسة للامبراطورية . فلم تكن مركز قوة مناوئة للسلطة ، واحتفظت بهيمنتها الدينية فقط وتقاليدها الكنيسية ، وقد نتج عن ذلك تعصب دينى أقل ، وسياسة واقعية عقلانية .

(ب) تواصل التراث بدرجة أكبر من الغرب اللاتينى الذى تردى فى ظلمات الجهالة قرونا بعد سقوط روما .

(جـ) توفر جهاز دولة ، وطبقات حاذقة من الموظفين ، ونظام قضائى ، وحنكة ديبلوماسية تهيأت بكثرة الاحتكاك مع جيرانها المتحضرين مثل امبراطورية فارس حتى القرن السابع ، ثم الخلافة العباسية فيما بعد .

تدهور الامبراطورية البيزنطية :

بدأ التدهور الفعلى للامبراطورية فى أواخر القرن الحادى عشر بعد هزيمتهم هزيمة نكراء على يد السلاجقة الأتراك المتعصبين عام ١٠٧١ م . ويقول المؤرخ هـ . فشر : (كثيراً ما غلب البيزنطيون على أيدى أعدائهمْ المسلمين وغير المسلمين . . ولكنهم لم يُهزموا يوما كهزيمتهم فى ماذكرد شمالى بحيرة وان بأرمنية عام ١٠٧١ م . . إذ كانت الإمبراطورية تعتمد كل الاعتماد على أقاليمها الآسيوية التى ولت عنها إلى المسلمين بعد هذه الواقعة ، فمن تلك الأقاليم كان خيرة جندها وملاحيها العاملين فى الأسطول) وقد وقع الإمبراطور رومانوس أسيراً فى هذه المعركة . ثم عاشت الإمبراطورية ثلاثة قرون أخرى يغلب عليها الاضمحلال . وقد ساهم الغرب اللاتينى فى ذلك حتى سقطت تماما فى منتصف القرن الخامس عشر على أيدى العثمانيين ١٤٥٣ م .

الحالة الاقتصادية والاجتماعية فى أوروبا حتى القرن الحادى عشر :

كان القرن التاسع ، والعاشر ، وجزء من الحادى عشر عصر تدهور اقتصادى واجتماعى بصفة عامة ، وكان النظام الاجتماعى يعتمد على خدمة العسكريين وولاء الفرسان إلى أمرائهم مقابل إقطاعيات يحوزونها . كما يعتمد على خدمة العمل التى يقدمها الزراع لأسيادهم مقابل الحيازات التى يسمح للفلاحين باستغلالها ، وقد ظل هذا النظام سائدا بعد هذا العصر ربما حتى الثورة الفرنسية .

وكانت أوروبا بعد المحاولة الإصلاحية للإمبراطور شارلمان مشغولة بصد الغارات من كل اتجاه مما سبب هجرة الفلاحين للحقول خوفا من الانتهاب . وضعفت البابوية فى تلك الفترة وفقدت الكثير من الهيبة حتى أن روما نفسها قد تعرضت للنهب فى القرن العاشر الميلادى . ولكن فى القرن الحادى عشر بدأت موجات التهديد فى الانحسار وبدأت المدن تنمو وعدد السكان يزداد ، وعاد الفلاحون إلى حقولهم ، ونشطت الدعوة للجهاد المقدس بجهود البابوات

الذين استعادوا قدرا كبيرا مما فقدوه من هيبتهم التى ضعفت لدرجة اضطر معها البابا يوحنا الثامن ٨٧٢ ـ ٨٨٢ م إلى دفع الجزية لمدة عامين للمسلمين .

* * *

العالم الاسلامى حتى القرن الحادى عشر

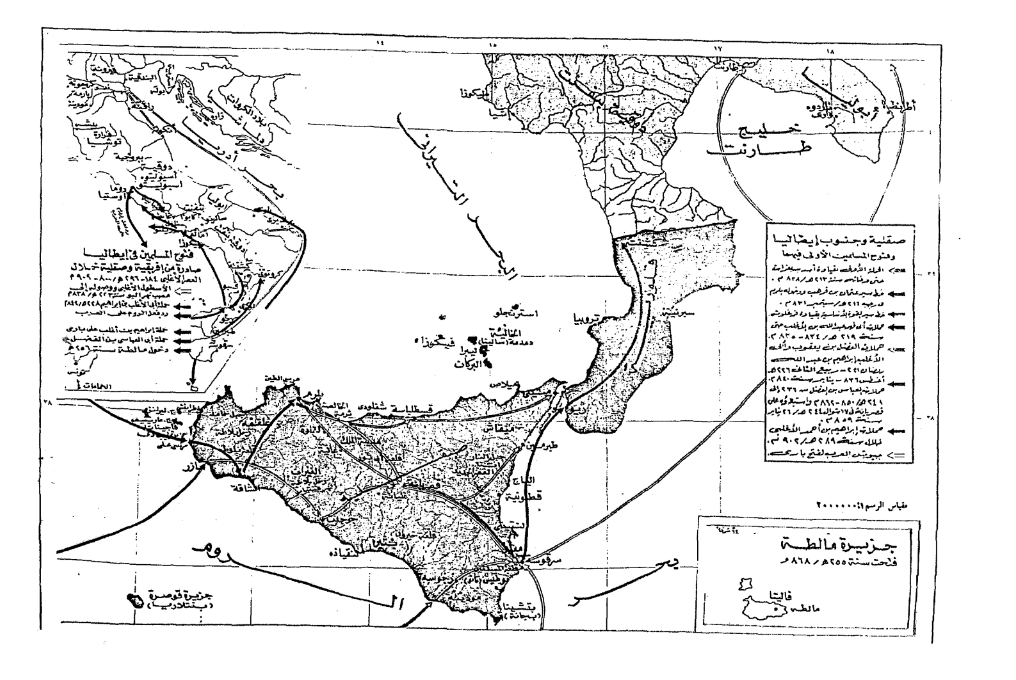
كان الأندلس فى عصره الذهبى مسيطرا على شبه الجزيرة الايبيرية فيما عدا جيوب فى أقصى الشمال ، والشمال الغربى صارت فيها بعد ممالك مسيحية قوية . . أما فى الشرق فكانت بغداد مدينة العباسيين الجديدة بالغة الثراء والاتساع . وإلى جانب العواصم (بغداد و قرطبة) إزدهرت المدن الاسلامية بصفة عامة . واجمالا كان العالم الإسلامى هو الجانب الأقوى عسكريا وحضاريا . وكان البحر المتوسط بحيرة عربية نشطت فيه التجارة نشاطا كبيرا . وكان الغنى واليسار الطابع العام للمدن الاسلامية . فعلى سبيل المثال كان سكان قرطبة أكثر من مليون نسمة يسكن العامة فيها ١١٣ ألف مبنى ، أما الخاصة فدورهم كانت ستين ألفا وبها ١٦٠٠ فندق و ٤٥٢ حانة ، وكانت مقسمة إلى واحد وعشرين حيا . يسكن الخاصة فى ثلاثة أحياء وهى الرصافة ، والزهراء ، والزاهرة . وشوارع هذه المدينة مرصوفة بالحصى ومضاءة ليلا بالسراج بأطوال تصل إلى ١٦ كم . وكانت المياه تجرى إلى المنازل فى شبكة عامة من الرصاص[1] . . أما فى بغداد فقد ذكر ابن خلدون أن دخل الدولة العباسية السنوى أيام الرشيد كان ٧٠١٥ قنطارا والقنطار فى حسابه عشرة آلاف دينار ، فيكون الدخل سبعين مليونا وخمسين ألف دينار . وهو رقم ضخم فى ذلك الزمان .

النشاط البحرى الإسلامى :

ظهور دولة الأغالبة « المغرب الأوسط » ٨٠٠ ـ ٩٠٩ م ، وهى دولة

---

(١) إبن حزم الأندلسى للدكتور عبد الحليم عويس الطبعة الثانية .



صقلية وجنوب إيطاليا
وفتوح المسلمين الأولى فيهما
الحملة الأولى بقيادة أسد بن الفرات حتى فتح مازر سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م .
خط سير عثمان بن قرهب ودخوله بلرم في رجب ٢١٦ هـ / سبتمبر ٨٣١ م .
خط سير القوة الأندلسية بقيادة فرغلوش .
حملات أبي فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب حتى سنة ٢١٩ هـ / ٨٣٤ - ٨٣٥ م .
حملات الفضل بن يعقوب والأمير الأغلب إبراهيم بن عبد الله رمضان ٢٢١ - ربيع الثاني ٢٢٦ هـ / أغسطس ٨٣٦ - يناير سنة ٨٤٠ م .
حملات العباس بن الفضل سنة ٢٣٦ إلى ٢٤١ هـ / ٨٥٠ - ٨٦٢ م واستيلاؤه على قصريانة في ١٧ شوال ٢٤٤ هـ / ٢٦ يناير سنة ٨٥٩ م .
حملات إبراهيم بن أحمد الأغلبي لفتح طبرمين سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م .
جيوش العرب لفتح باري
فتوح المسلمين في إيطاليا
صادرة من إفريقية وصقلية خلال العصر الأغلبي ١٨٤ - ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م
الأسطول الأغلبي ووصوله إلى مصب نهر البو سنة ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م
حملة أبي الأغلب بن إبراهيم ٢٢٨ هـ / ٨٤٢ م
رد فعل الروم على العرب
حملة إبراهيم بن أغلب على باري
حملة أبي العباس بن الفضل
دخول مالطة سنة ٢٥٦ هـ
الحمامات
تونس
البحر التيراني
بحر أدرياتي
بلاد الكروات
خليج طارنت
البندقية
رافنة
أنكونة
توشيا
دوقية أسبوليتو
روما
أوستيا
سالرنو
نابلي
قابوا
أمالفي
باري
أبوليا
كروتونة
ريو
أسترنجلو
ليبرا
البركان
فيكوزا
الطاليطة
بلرم
مسيني
ميلاص
شلوفي
قسطلياتة
طبرمين
قطانية
سرقوسة
مازر
الشاقة
طرابنش
مرسى علي
بتشينا
جزيرة قوصرة (بنتلاريا)
جزيرة مالطة
فتحت سنة ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م
مالطة
قاليتا
مقياس الرسم ١ : ٢٠٠٠٠٠٠
بحر الروم

بحرية بالدرجة الأولى . فقد فتحوا صقلية عام ٨٢٧ م ، ومالطة . . وجنوب إيطاليا ، ووصل أسطولهم البحرى فى حملات منتظمة حتى مصب نهر البو فى شمال إيطاليا عام ٨٣٨ م . بل إنهم دخلوا روما نفسها فى ٢٢ أغسطس ٨٤٦ م وانتهبوها . كما قام غزاة البحر المسلمون بالنزول فى دلتا نهر الرون المعروفة باسم Comargue وأنشأوا قاعدة عسكرية ثانية يشنون منها غارات فى فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا . وفيما بين عام ٨٩١ - ٨٩٤ تمكن غزاة البحر من الأندلسيين من النزول فى خليج سان تروبيز Saint Tropez فى جنوب فرنسا ، وتحصنوا فى جبل فرانكتنويم Fraxintum وأنشأوا قواعد لهم فى جبال الألب ، وتوغلوا فى سويسرا فى سان جالن Saiut Galen عام ٩٤٣ م وقد حاول إخراجهم من هذه المنطقة ملك إيطاليا توجو بالتعاون مع امبراطور بيزنطة رومانيوس ولكنها فشلا . واستمر المسلمون هناك حتى عام ٩٧٢ م عندما أخرجهم الامبراطور أوتو الأول . ولكن هذه السيادة البحرية تقلصت فى منتصف القرن الحادى عشر بظهور النورمان كقوة فى جنوب إيطاليا عندما أستنجد بهم أحد ملوك الطوائف فى الأندلس فى تنازعهم على حكم جزيرة صقلية (محمد بن ابراهيم القادر بالله) فأقبل ملك النورمان إلى صقلية واستولى على معاقلها . وأبقى حكامها المسلمين . إلا أن ابن هذا الملك « روجر الثانى » أعلن نفسه ملكا على صقلية . وكان متسامحا مع المسلمين ومن الطريف أن بلاط هذا الملك كان إسلامى الشكل والتقاليد ، وكان نصف جيشه من النورمان والنصف الآخر من المسلمين . وأنه أحاط نفسه بعلماء بيزنطة وعلماء المسلمين الذى كان أشهرهم عالم الجغرافية الشهير الشريف الإدريسى (صاحب أول خريطة للعالم المعروف آنئذ على عكس الشائع إنه بطليموس) وقد رسمها على طبق من الفضة .

أما فى الأندلس فقد سقطت الخلافة الأموية فى أوائل القرن الحادى عشر ١٠٠٩ م . وبدأ حكم ملوك الطوائف المتنازعين مما هيأ الفرص لملوك ليون وقشتالة مثل الفونسو السادس لاستخلاص طليطلة عاصمة القوط القديمة عام ١٠٨٥ م . مما رفع الروح المعنوية للعالم المسيحى كله ودعا البابا أوريان الثانى

لتوجيه حملات صليبية لاستخلاص بيت المقدس من المسلمين فى نهاية القرن الحادى عشر عام ١٠٩٥ م .

الحالة الفكرية والثقافية فى العالم الاسلامى :

شهدت هذه القرون الثلاثة نهضة فكرية إسلامية تمثلت فى استحداث عدة مبادىء ترشد الابداع الانسانى : الأول : هو فصل الفلسفة عن العلوم الطبيعية ، والثانى : إرساء مبادىء المذهب النقدى ، والثالث : ظهور التعليم المدنى بجانب التعليم الدينى ، الأمر الذى لم يكن موجودا من قبل بالإضافة إلى إبراز أهميته . تلك الأهمية التى اعتمدت عليها النهضة الأوروبية بعد خمسة قرون تالية .

كيف كان ذلك وما هو الدليل عليه ؟

كان أول من فصل علم الطب عن الفلسفة هو الطبيب الشهير ابن زهر الأشبيلى وله أبحاث فى معالجة الجرب بالكبريت وأزمات الربو ، وألف كتابا أسمه « التيسير فى المداواة والتدبير » ظل مرجعا من أهم المراجع الطبية فى أوروبا حتى القرن السادس عشر . وكان كتابه هذا من أوله لآخره موضوعيا بالنسبة للطب ... والطب وحده .

أما فى العلوم الإنسانية فنتكلم عن الإمام ابن حزم ٣٨٤ ـ ٤٥٦ م كرائد من رواد التاريخ المؤسس على المنهجية العلمية . وهو أول من أدرك أن للتاريخ تفسيرا وأن وراء جزيئات أحداث التاريخ عوامل تؤثر فى حركته ، وهو اكتشاف هام لم تعرفه أوروبا إلا فى عصر النهضة . وابن حزم مفكر اجتماعى تربوى راع لأسس بناء الأمة ورقيها .. فقد سبق عصره بإدخال الحرف المهنية وأساليب الزراعة فى برامج التعليم .. ودعنا نتأمل النص التالى من رسائل ابن حزم فى القرن الحادى عشر يقول :

(العيش لا يكون إلا بتفاهم ضرورة ، والتفاهم لا يكون الا من عاقل مميز ، ولا سبيل إلى أن يبلغ السن إلا بتربية كما أن التفاهم لا يكون إلا بتعليم

ولابد كذلك فى جميع الصناعات .. من آلات حرب والعمل بها .. وآلات نسيج والعمل بها .. والطب وسائر العلوم والصناعات لا يكون إلا بتعليم ابتداء .. وكل ما علم .. فهو علم فيدخل فى ذلك علم التجارة والخياطة والتدبير الفنى والفلاحة وتدبير الشجر والبناء وغير ذلك ... هذه لغة الامام ابن حزم .. رحمه الله)[1] .

من المعروف أن أبا الطب القديم جالينوس الأغريقى السكندرى ومن بعده ابن سيناء . وقد لقب ابن سينا بالشيخ الرئيس . ثم جاء ابن النفيس الدمشقى مكتشف الدورة الدموية للإنسان قبل سيرفيرس البرتغالى بثلاثمائة عام يعارض السابقين ومنهم الشيخ الرئيس ابن سينا فى بعض الموضوعات بأدب جم ولكن فى شجاعة فيقول :

« إننا نعتمد على ما يقتضى النظر المحقق والبحث المستقيم ولا علينا وافق ذلك رأى من تقدمنا أو خالفهم » .. قيل هذا الكلام قبل عصر النهضة الأوروبية بعدة قرون .

وقد نشطت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية فى هذه الفترة .. وعلى سبيل المثال كتاب الطبيب الزهراوى وهو فى ٤٠٠,٠٠٠ كلمة . ترجم الجزء الأول منه قسطنطين الأفريقى إلى اللاتينية عام ١٠٨٧ م . وظهرت الترجمة الكاملة له ١١٢٧ م . ولا داعى للخوض فى أعلام العلماء الذين ظهروا تباعا .. ويكفى أن تعرف أن ضاحية كاملة من ضواحى قرطبة وهى الزهراء كانت متخصصة فى الطب .. فكان بها خمسون مستشفى ومكتبتها بها ٢٥٠ ألف مخطوطة متخصصة فى الطب . وعلى سبيل المثال أيضا ، ألف الطبيب الزهراوى موسوعة طبية فى ثلاثين مقالة بها وصف ورسم وصور مائتى آلة جراحية أكثرها من اختراعه مثل جفت الولادة المستخدم حتى الآن بعد تطويره .

---

(١) رسائل ابن حزم للدكتور عويس



الامام ابن حزم

ولم يكن حال المشرق الاسلامى بأقل منه فى الأندلس الزاهر . . وإليك بعض تراث الخوارزمى كمثال :

١ ـ كتاب صورة الأرض وهى نسخة وحيدة بالعربية محفوظة فى مكتبة جامعة استراسبورج بفرنسا .

٢ ـ كتاب تحديد زوايا السمت نسخة وحيدة فى إسطنبول .

٣ ـ كتاب الساعات الشمسية نسخة وحيدة فى إسطنبول .

٤ ـ النظام العشرى فى الحساب .

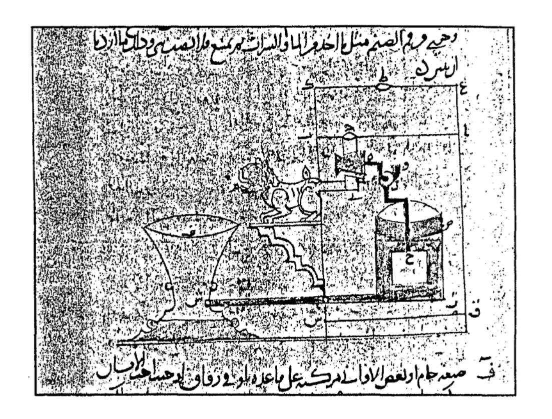
٥- كتاب الجبر والمقابلة ونسخته الأصلية بالاتحاد السوفييتى .

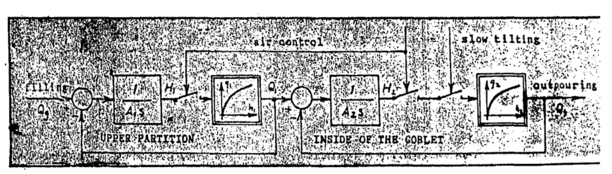
وقد ترجمت معظم كتبه إن لم يكن كلها إلى اللاتينية .

أما فى مصر فى العهد الفاطمى . فكان ابن يونس المصرى مكتشف حركة البندول ، وهو صانع أول ساعة دقاقة تعمل بحركة البندول ، وصحح الجداول الفلكية للسابقين . إن كل ما ذكرته موثق فى مراجع معتمدة وقد أخترت مثالا لأحد الكتب التى أدهشتنى ورأيت أن أحاول إشراك القارىء العزيز فى دهشتى إن استطعت ، ألا وهو كتاب **الحيل لأحمد ابن موسى ابن شاكر** . . وهو ثالث ثلاثة أخوة كلهم علماء معروفون تاريخيا بأبناء موسى . . (عاشوا فى القرن التاسع الميلادى) وهذا الكتاب يتضمن سبعين تصميما لأجهزة الأوانى السحرية . . . وخمسة عشر جهازا للتحكم الذاتى ، وسبعة نوافير ماء ، وثلاثة مصابيح زيت ، ونظام رافع ميكانيكى . وتعتمد طرق العمل على مبادىء الضغط الايروستاتيكى والهيدروستاتيكى . ولا يزال بعضها يلبى متطلبات الميكانيكا ، والتحكم الذاتى فى العصر الحالى (دون مبالغة) ويقدم الكتاب النماذج والرسوم التقنية . . ونظم الضبط والادارة وبالأخص التحكم التلقائى وقد تناول (الدكتور أتيلا بيير) الكتاب بالتحليل مع شرحه شرحا معاصرا .

RESEARCH CENTRE FOR ISLAMIC HISTORY, ART AND CULTURE

"KITĀB AL-HIYAL" OF BANŪ MŪSĀ BIN SHĀKIR





Model 97-An Oil Lamp in Which the Wick is Automatically Regulated and the Oil Level is Automatically Controlled (Figure 97-a)

Here, the oil level control of the Model 95 and the automatically regulated wick mechanism of the Model 96 are applied together in the same model. Since the original figure is inadequate a reconstruction attempt is given in Figure 97-b. The oil is poured through the hole l into the tank behind the lamp. The inpoured oil passing the air obstacle v-z flows into the oil tank and from there into the lamp vessel going through a swan head a-e stretching over the oil lamp. The oil level of the vessel is automatically controlled by an air pipe (also from which the wick regulating chain goes through). The flow of the oil into the lamp vessel stops when the end c of the air pipe is blocked by the oil. The burned quantity of oil is automatically refilled by the tank oil flowing through the swan head (see Model 95)

The wick is regulated by the float ţ existing in the oil tank. The position of the float is transmitted by the pulleys h-c-k̇ and the counter weight s to the gear axel y-k̇. As in the Model 96 the gear y moves the wick towards the outlet hole when the level of oil in the tank decreases.

As seen in Figure 97-c the block diagram of the system is formed by the combination of the previous system block diagrams. In the work it is also stated that this system can be used as a time piece. A mechanism connected to the float ţ lets a marble ball fall every hour, so that the time is then determined by the number of the fallen marbles.

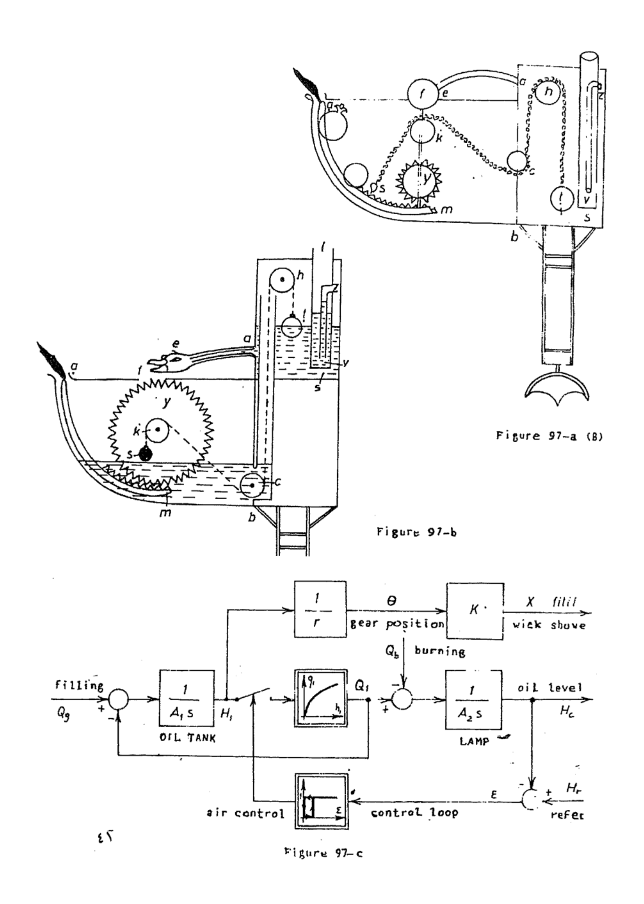


Figure 97-a (B)

Figure 97-b

Figure 97-c

والكتاب موجود فى مكتبة متحف سراى طوب قابى باسطنبول تحت رقم A7374 . ومن يتأمل هذا الكتاب يمكنه القول بأن تكنولوجيا عصر النهضة الأوروبية تدين له بالكثير .

وقد عاصر الأخوة العلماء من الخلفاء العباسيين المأمون الذى كلفهم بأول مهمة فى شبابهم ، وهى تدقيق ما جاء فى كتب القدماء عن محيط الأرض وهو ٢٥٠٠٠ ميل وقاموا بتجارب ميدانية أثبتوا فيها أن المحيط ٢٤,٠٠٠ ميل وهو رقم قريب جدا من الحقيقة ، كما عاصروا المعتصم والواثق . . وقد بلغ نشاطهم أوجه فى عهد المتوكل ٨٤٧ - ٨٦١ م .

خلاصة القول أن هذه القرون الثلاثة كانت عصر سيادة الفكر والعلم العربى الإسلامى للعالم كله ، كما كان عصر السيطرة التجارية والعسكرية أيضا ، وعصر الترف والازدهار للمدن الإسلامية .

وفى المقابل كان الغرب اللاتينى الذى بدأ فى الانتعاش الاقتصادى فى أواخر القرن الحادى عشر وتحت تأثير التعصب الدينى ، يدعو للعنف والجهاد المقدس ضد المسلمين . ولقد بدأت الدعوة إلى الجهاد بعد ورود أخبار انتصارات الأتراك السلاجقة على الامبراطورية البيزنطية وأسر الامبراطور رومانوس ١٠٧١ م ، كذلك ورود أنباء أول انتصارات مسيحية فى أسبانيا على ملوك الطوائف عام ١٠٥٧ م بعد سقوط الخلافة الأموية فى أوائل القرن الحادى عشر .

القسم الخامس
الحروب الصليبية والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية للأطراف المتصارعة

ظهور فكرة الحروب الصليبية

تُعد الحروب الصليبية من أهم أجزاء التاريخ المشترك بين أوروبا والعالم الإسلامى - بتوجيه من البابوية فى روما بغرض استعادة بيت المقدس فى الشام وقد بدأت هذه الحروب فى نهاية القرن الحادى عشر ، واستمرت فى عنف وضراوة حتى القرن الخامس عشر ثم أخذت ألوانا أخرى من الصراع فى رأى البعض حتى القرن السابع عشر .

وأول من فكر فى هذه الحملات العسكرية هو البابا جروجرى السابع مستغلا استغاثة الامبراطورية البيزنطية بعد موقعة ما ذكرد التى هزت العالم المسيحى كله . وقد تزامن ذلك تقريبا مع محاولة الفونسو السادس ملك ليون وقشتالة استخلاص بعض الأراضى فى أسبانيا من أيدى ملوك الطوائف وتمكنه فعلا من استخلاص طليطلة عام ١٠٨٥ م . ومنذ ذلك التاريخ أخذ الصراع فى أسبانيا صفة الحرب العامة الدينية المتعصبة ، ووضع المقاتلون لأول مرة فيها شارة الصليب على صدورهم وظهورهم ودروعهم وأصبحت كل مجموعة عسكرية من هؤلاء تسمى قوة صليبية Cruzada .

وفى عام ١٠٩٥ دعى البابا أوريان الثانى لتجهيز الحملات العسكرية إلى قلب العالم الإسلامى لاستخلاص بيت المقدس وبلغ عدد هذه الحملات خمس عشرة حملة منها سبع حملات قوية ضخمة إنتهت بالحملة السابعة على مصر بقيادة الملك لويس التاسع التى أسر فيها . كان الملك لويس التاسع متدينا ، شجاعا ، وكان يطلق عليه « لويس التقى » ولكنه بدد جيشه تماما فى معركة المنصورة . . وفر كثير من جنوده إلى القرى المصرية المحيطة بالمنصورة مستجيرين بالفلاحين . وربما يعرف الكثيرون أن بعضا من القرى حول المنصورة تظهر على وجوه أبنائها الكثير من الصفات الخلقية الأوروبية كالعيون

الملونة ، واصفرار الشعر ، وبياض البشرة بدرجة ملفتة المهم كانت هذه الحملة نكبة شديدة على أوروبا التى افتدت الملك التقى بفدية كبيرة أقسم بعدها ألا يعود لمحاربة المسلمين أبدا وكان ذلك فى مايو ١٢٥٠ م . ولكنه حنث فى قسمه ووجه حملة صليبية ثامنة إلى تونس متحاشيا مواجهة دولة المماليك القوية فى مصر ظنا منه أن تونس ستكون صيدا سهلا . وقد عاونه فى الحملة الثامنة أخوه شارل ملك صقلية . . ولكن المقاومة الإسلامية كانت عكس ما توقع فقد واجه قوات الحفصيين وهزم ومات عام ١٢٧٠ م .

ولما كانت تلك الحملات السبع الكبيرة معروفة للجميع وتدرس بالمدارس فسوف نمر عليها مرورا سريعا فالحملتان الأوليان لقيتا استجابة من ملوك أوروبا فاقت ما كان يتصوره البابا أوربان الثانى ففى الحملة الأولى اخترقت القوات الصليبية القسطنطينية وهزموا السلاجقة الأتراك عام ١٠٩٧ م . واستولوا على انطاكية ثم دخلت القدس عام ١٠٩٩ وارتكبت بها مذبحة فظيعة قتل فيها سبعون ألفا من سكانها المسلمين والمسيحيين . . أما الحملة الثانية بقيادة لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثانى ملك ألمانيا فقد حاولت فتح دمشق وقد باءت بالفشل .

أثار سقوط القدس وأنباء المذبحة المروعة مشاعر المسلمين . ومخاوفهم حتى أن الجماهير فى بغداد هاجمت قصر الخليفة العباسى لاعلان الجهاد . وأخيرا تحرك المسلمون وكان أولهم مودود التركى أتابك الموصل ، فاقتحم امارة الرها وأسر عددا من الصليبيين . كان ذلك فاتحة حركة رد الفعل الاسلامى والتجمع لحرب الفرنجة وظهر السلطان صلاح الدين الأيوبى الذى حرر القدس بعد معركة حطين الشهيرة فى يونيو عام ١١٨٧ م . وكان لذلك دوى عالمى كبير خلد اسم صلاح الدين فى التاريخ وتحظى سيرته حتى الآن بالاحترام الشديد سواء فى التاريخ الأوروبى أو الاسلامى . ثم جاءت الحملة الثالثة بقيادة ملوك وروبا ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، فريدريك بربروسا امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة انتهت هذه الحملة بصلح الرملة مع صلاح الدين الذى يقضى بترك

شريط ساحلى يمتد من صور إلى يافا للصليبيين مع السماح لهم بالحج لبيت المقدس الذى ظل فى أيدى المسلمين . . أما الحملة الرابعة فقد خرجت عن هدفها ولم تصل إلى الشرق وإنما انتهت بالإستيلاء على القسطنطينية وإقامة دولة لاتينية فيها لمدة خمسين عاما .

أما الحملة الخامسة فكان هدفها مصر . نزلت فى دمياط فى نوفمبر ١٢١٩ م ولكنها فشلت ورحلت قواتها عام ١٢٢١ م . أما الحملة السادسة فكانت بقيادة امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة فريدريك الثانى أبحر لسواحل الشام ولكنه سرعان ما عاد بحجة أنه لم يتحمل دوار البحر فى حين أن أسطوله وجنوده كانوا قد وصلوا فعلا لسواحل الشام وقد أغضب هذا التصرف البابا الذى حرمه وطرده من الكنيسة . ورغم ذلك فقد عاد الامبراطور فى صيف ١٢٢٨ م ـ وهو طريد الكنيسة ـ على رأس حملة قصد بها بيت المقدس . وكان السلطان الكامل الأيوبى حينئذ فى نزاع مع أخيه الناصر والى دمشق ، لذلك سارع بالتفاوض مع فريدريك وتنازل له عن بيت المقدس . . ولكن الغريب أن البابوية رفضت نتائج هذه الحملة بحجة أن فرسان الصليب ذهبوا لبلاد الشام لحرب المسلمين ، لا للتفاوض معهم والأكثر غرابة أن البابا أعلن عن عزمه على إرسال حملة صليبية ضد أملاك فريدريك الثانى الزنديق ، الملحد . ولم يمض وقت طويل حتى تمكن الأيوبيون من استعادة بيت المقدس وكل ما كان السلطان الكامل قد تنازل لهم عنه . أما الحملة السابعة والثامنة فقد سبق ذكرهما عند ذكر لويس التاسع ملك فرنسا .

احتضار الوجود الصليبى :

لم ينقطع البابوات عن تغذية فكرة العدوان المسلح على بلاد المسلمين . وقد حدثت غارة شديدة على الاسكندرية تحت ستار الصليب فى عام ١٣٦٥ م . ثم بعد ظهور العثمانيين كدولة توجهت حملة صليبية هدفها الدولة العثمانية الناشئة ولكنها هزمت هزيمة منكرة عام ١٣٩٦ م ، وانهزم الصليبيون مرة أخرى عام ١٤٤٤ م عند فارنا على سواحل البحر الأسود .

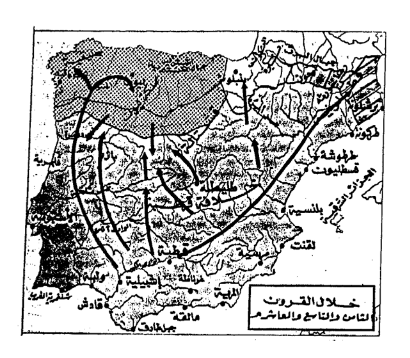
ونشط فرسان القديس يوحنا فى جزيرة رودوس . وأقاموا بها دولة إفرنجية وظلت الفكرة الصليبية موجودة تظهر فيما قام به ملوك أوروبا من العدوان على شواطىء بلاد المسلمين . . مثل حملات الأمير هنرى الملاح البرتغالى على المغرب فيما بعد .

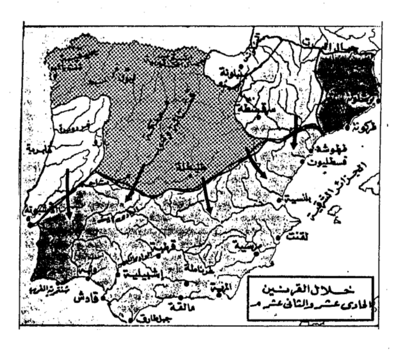
أما فى الشرق فقد تم تصفية الوجود الصليبى فى عهد السلطان الأشرف خليل بعد استيلائه على عكا فى مايو ١٢٩١ م أما رودوس وقبرص فقد حررهما السلطان الأشرف شعبان والسلطان سيف الدين جقمق عامى ١٤٢٦ م ، ١٤٤٤ م وقد ظلت الجزيرتان تابعتين لمصر المملوكية حتى انتقلت ملكيتهما للدولة العثمانية عام ١٥١٧ م . ومعنى ذلك أن الحروب الصليبية استمرت حتى منتصف القرن الخامس عشر ، وإن كان الوجود الصليبى فى الشام قد انتهى فى نهاية القرن الثالث عشر .

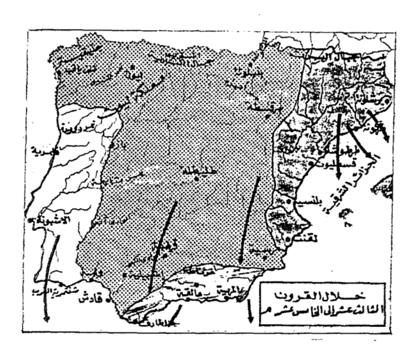
حركة الاسترداد فى أسبانيا :

بعد سقوط طليطلة فى عام ١٠٨٥ م عبر المرابطون من المغرب إلى الأندلس لنجدته وانتصروا على الفونس السادس ملك قشتالة فى موقعة الزلاقة (أكتوبر ١٠٨٦ م) وفى عام ١٠٨٩ م عزل المرابطون ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس جزءا من دولة المرابطين فى المغرب . وقد حافظ المرابطون على ما ورثوه من الأندلس وتمكنوا من وقف حركة الاسترداد . وفى عهد دولة الموحدين تم توجيه حرب صليبية بمباركة البابا وقادها ملك مملكة الأرجون عام ١٢٤٨ م وقد اتحدت فيها معظم الممالك المسيحية فى شبه جزيرة أيبريا وانتهت بسقوط قرطبة العاصمة الاسلامية ١٢٣٦ م . ثم أخذت قواعد المسلمين فى الأندلس تتهاوى تحت ضربات صليبية بالغة التعصب حتى استطاع ابن الأحمر من تأسيس مملكة غرناطة ووقف هذا التدهور من أوائل القرن الثالث عشر حتى نهاية القرن الخامس عشر .

وقد حكمت أسرة إبن الأحمر ٢٦٨ عاما وكان شعارها « لا غالب إلا الله » نراه منقوشا بصورة مكررة فى قلعة الحمراء التى أنشأها فى غرناطة ،

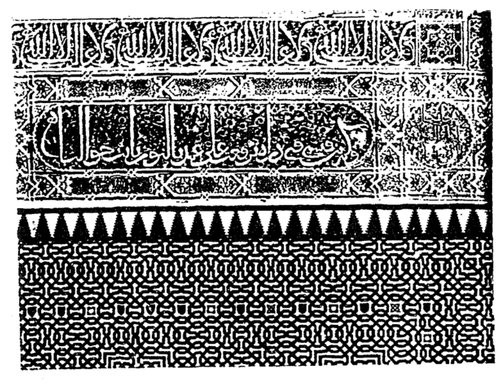

خلال القرون
الثامن والتاسع والعاشر م
طركونة
طرطوشة
قسطليون
بلنسية
لقنت
مرسية
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
قادش
مالقة
جبل طارق
قلمرية
طليطلة


خلال القرنين
الحادي عشر والثاني عشر م
طركونة
طرطوشة
قسطليون
بلنسية
لقنت
مرسية
قرطبة
إشبيلية
غرناطة
المرية
قادش
مالقة
جبل طارق
قلمرية
طليطلة
سرقسطة



تعاقب على عرش غرناطة واحد وعشرون ملكا ورغم صغر المملكة إلا أنها كانت مملكة قوية توفرت لهذه الأسرة الحنكة السياسية مما جعلها تعمر وتعقد اتفاقيات مع الممالك المسيحية وكأنها واحدة منهم فقد ساعد ابن الأحمر بقوة من جيشه ملك قشتالة وليون . واستطاع أن يسترد الجزيرة الخضراء وحصن جبل طارق ليؤمن اتصاله بالمغرب . وقد هبطت حدة التعصب الدينى بنهاية القرن الثالث عشر .

ونلاحظ أن حركة الاسترداد بلغت ذروتها وحققت معظم مكاسبها فى أثناء الحروب الصليبية فى الشرق . وقد أثر فشل الحروب الصليبية على حركة الاسترداد التى توقفت تقريبا مدة ٢٦٨ عاما . ومن الطريف أن الفونس العاشر طلب معاونة ابن الأحمر عندما اختلف مع ابنه شانجو الرابع الذى نازعه الحكم مما جعل الفونسو يهرب من ابنه ، ويلجأ فعلا إلى ابن الأحمر . وأعظم ما خلفته هذه الأسرة هى قلعة الحمراء التى تُعد قصورها من أعظم آيات الفن الرفيع . وكان شعار هذه الأسرة المنقوش بطرق زخرفية فى كل مكان مناسب من قصور الحمراء « لا غالب إلا الله » .

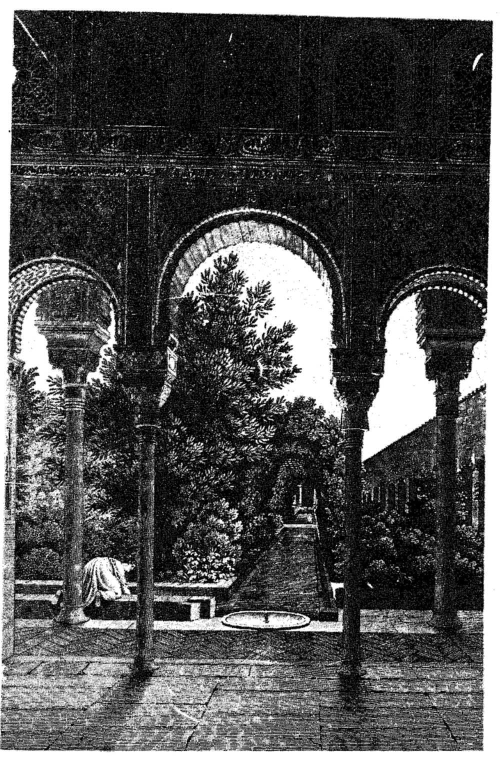


A fragment of the poem by Ben Zamrak in the decoration of the Room of the Two Sisters.

west side has now lost almost all its ornamentation and was named after the decoration on the vault, of which there are only a few scant traces. On the opposite side, three porticoes, corresponding to two square rooms which intercommunicate through wide arches, give access from the courtyard to the Sala de los Reyes. It is covered with cupolas decorated with scroll-like figures and is called the Sala de los Reyes because of the paintings decorating the rooves of the open alcoves at the back of the rooms, which are suspected of representing Nazari monarchs. Two great twin flagstones covering the floor named this room Las Dos Hermanas (The Two Sisters), which

Room of the Abencarrajes. ▶

شعار بني الأحمر



قصر الحمراء

ثم سقطت غرناطة بمعاهدة مع فرناندو وايزابيلا ملوك قشتالة وليون فى ٢ يناير ١٤٩٢ .

نشط الأساقفة فى تنصير المسلمين الذين عرفوا بعد ذلك بالموريسكيين Los Morisco . وقد ثار المسلمون عدة مرات كان آخرها عام ١٦٠٩ م فمثلا ثاروا فى عام ١٥٦٨ وحدثت محاولة إنزال بحرى إسلامى من الجزائر العثمانية ولكنها فشلت . ويبدو أن الثورة كانت مخططة مع الانزال البحرى توقيتا الأمر الذى أستوجب صدور أمر بالطرد لجميع بقايا المسلمين إن لم يتنصروا وفى عام ١٦١٤ م تم طرد آخر مسلم أصر على إسلامه من أسبانيا إلى المغرب . أى فى أوائل القرن السابع عشر .

موقف المغرب العربى من الصراع الدائر :

كان بالشمال الإفريقى أربع دول إسلامية متصارعة الموحدية ، والمرنيين (بنو مرين) ، الزناتية ، والحفصية وقد أدى ذلك النزاع بينهم إلى إضعافهم جميعا . وطالت أيام بنو مرين حتى ١٥٥٠ م وقد عاونوا بنى الأحمر فى الأندلس بعبورهم لنجدته عام ١٢٨٦ م وانتصروا على قوات قشتالة فى ٨ سبتمبر ١٢٨٦ م . إلا أنه بعد نحو ثلاثة وخمسين عاما انتصر الفونسو الحادى عشر وحلفاؤه على بنى الأحمر وحلفائه من بنى مرين وبنى وطاس عام ١٣٣٩ م ، وقد حكم بنو وطاس المغرب الأقصى حتى ١٥٥٠ م ثم أعقبهم الأشراف السعديون وقد سيطر العثمانيون فيما بعد على شمال أفريقيا عدا المغرب الأقصى الذى يحكمه السعديون الذين لم يتعاونوا مع العثمانيين بحجة عدم الاعتراف بالسلطان العثمانى خليفة للمسلمين لأنه غير قرشى النسب مثلهم ، وذلك يعكس نظرة ضيقة لا تناسب طبيعة الصراع العالمى فى ذلك الوقت . وخاصة أن محاولات الجزائر العثمانية فى صراعها البحرى مع الأوربيين ومحاولة مساندة ثوار الأندلس المسلمين كانت تستدعى تعاون الدولتين العثمانية والسعدية .

ظهور العثمانيين :

فى أوائل القرن الرابع عشر ١٣٢٦ م تكونت (دولة اسلامية) على أنقاض دولة السلاجقة الأتراك التى استنزفت الامبراطورية البيزنطية سيطر العثمانيون على الركن الشمالى الغربى من آسيا الصغرى ، وعبروا بحر إيجه ، ونزلوا على الساحل اليونانى ١٣٥٤ ، ثم أقتطعوا اليونان كلها عام ١٣٣٩ ، وأوغلوا شمالا وغربا واستولوا على صوفيا عاصمة البلغار ١٣٨٦ م وأصبحت ولاية الصرب تابعة لسلطان الأتراك العثمانيين وقد نهضت المجر وبولندا فى حملة صليبية هزمها العثمانيون ١٤٤٤ ـ ١٤٤٨ م . وتمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية فى التاسع والعشرين عام ١٤٥٣ م منهيا الامبراطورية الرومانية الشرقية التى عمرت أكثر من ألف عام بعد سقوط روما . هز هذا الحدث أوروبا وأشعل الأمل فى الشعوب الإسلامية وخاصة فى المغرب العربى الذى كان يعانى من هجمات الصليبيين على شواطئه . وقد قام محمد الفاتح بالعبور إلى إترانتو على الساحل الايطالى عازما فتح روما نفسها ولكنه توفى وانسحب الأتراك العثمانيون عائدين .

وبنهاية القرن الخامس عشر كان العالم الاسلامى المشتبك فى صراعه مع الغرب اللاتينى يتكون من الدولة العثمانية القوة الصاعدة فى آسيا الصغرى وأوروبا الشرقية ، والدولة المملوكية القوية فى مصر والشام ويتبعها جزيرتا قبرص ورودس فى شرق البحر المتوسط ، ودولة بنى وطاس فى المغرب الأقصى والدولة الحفصية فى طرابلس والجزائر والمغرب الأوسط .

الحالة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر والشام فى أثناء الحروب الصليبية

كانت الحروب الصليبية صدمة لكلا الفريقين المتصارعين . . وربما كانت استفادة أوروبا منها أكبر من استفادة العالم الإسلامى فقد رفعت الحروب الصليبية والانتصارات الأولى سلطان البابوية فى أوائل القرن الثالث عشر إلى

درجة عالية فى عهد أونسنت الثالث حيث ترسخت فعلا وعملا فكرة أن السلطة المطلقة يجب أن تكون للبابوية وأن من حق البابا أن يختار الملوك ، والأباطرة وفقا لمشيئته . ولكن بنهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر ضعفت البابوية وظهرت الأفكار العلمانية المناوئة . . فقد غرر البابوات ملوك وشعوب أوروبا فى حروب الوثنيين المسلمين المتبربرين الذين تبين من الاحتكاك بهم أنهم غير وثنيين وغير متبربرين . وعلى مدار ما يقرب من قرنين ونصف تخللها قتال ومفاوضات وأحتكاك عن قرب نتج عنه تشكك كبير فى ادعاءات البابوية حتى تستمر سيطرتهم على شعوب وملوك أوروبا . ويمكننا القول بأن الحروب الصليبية كانت سببا مباشرا فى الصراع بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية فى أوروبا . . ولم يمض قرن من الزمان حتى أطل فجر بواكير عصر النهضة ، وعلى سبيل المثال وجه آونسنت الثالث الحملة الصليبية الرابعة فانحرفت عن غرضها واستولت على القسطنطينية ، ويقال أن البنادقة هم السبب فى ذلك لتحقيق أرباح طائلة ، إذ خرجت البندقية منها بالاستيلاء على أهم الثغور البحرية المسيطرة على طرق التجارة فى شبه جزيرة القرم وجزيرة كريت وبعض جزر الأرخبيل إلى جانب تشكيلها إدارة تجارية فرضت سيطرتها على الإمبراطورية البيزنطية المهزومة . وفى نهاية القرن قويت فكرة أنه ليس من الضرورى أن يخضع الملك للبابا لكى يحظى بالجنة فى الآخرة ، ورأى الكثيرون أن البابوية تتعسف فى حرمان الملوك والأباطرة . . وانتهى الأمر بأن خطف ملك فرنسا فليب الجميل البابا يونيفاس . أتى به أسيرا إلى فرنسا عام ١٢٩٩ م ، وبعد ست سنوات انتخب الكاردينال برتان دى جوت (كليمنت الخامس) ١٣٠٥ م . . بمساعدة فرنسا واتخذ مقره بمدينة آفنون الفرنسية أما فى الشرق فقد أندلعت الحروب الصليبية والملوك والأمراء المسلمون فى فرقة وتنازع ، وترف ، ولهو . ففاجأتهم حماسة وتعصب الأوربيين المسيحيين . . فحدث هلع . . وذعر . . ومضى وقت طويل لاستنهاض الهمم والحق يقال أن الأيوبيين قد بذلوا جهداً كبيراً فى ذلك لإثارة الحمية الدينية التى كانت سببا فى الانتصار فى النهاية . . ولكن الواضح أن التعاون بين ملوك المسلمين كان

أقل من تعاون خصومهم . فقد استنجد صلاح الدين بملوك المغرب العربى مستشهدا بما يرتكبه الصليبيون ولكن ملوك المغرب لم يستجيبوا له . وكان اعتماد الايوبيين فى الحرب على العنصر الكردى والتركى . . وكان يتطلب ذلك نفقه كبيرة أنعكست على كثرة الضرائب والمكوس فبلغت الحال بمصر والشام مبلغا كبيرا من السوء بسبب تخريب المدن ، وهجر الحقول وتعطل الصناعة ، وقد ابتليت مصر أكثر من مره خلال الحروب الصليبية بالمجاعات التى كانت تؤدى بحياة الآلاف من المواطنين علاوة على بعض الأمراض الوافدة من أوروبا مثل الطاعون والحميات . كل هذه المصائب تركت على الناس روح الحزن والاستسلام واللجوء إلى الله يدعونه أن يكشف الضر ـ ولكن الايوبيين حاربوا رجال الدين وشجعوا شعارات الجهاد بالنفس والمال ، وكان الأدب والثقافة عموما يتأرجحان مع سير المعارك . ولطول هذه الحروب حدث اختلاط شديد وخاصة فى الشام بين الصليبيين والمسلمين مما افاد الطرفين ، فلم يبخل بعض الكتاب المسلمين من ذكر بعض مناقب الصليبيين مثل ابن جبير ، وشاع الكثير من القصص . وكان لظهور نساء الفرنجة فى ساحات القتال أثر إجتماعى على المسلمين . وانعكس ذلك على الآدب حيث نرى البعض قد هاجم سفور النساء وتبرجهن . فى حين أن بعضا آخر مدحوا صمودهن فى الحرب وقتالهن وتحملهن المسئولية .

أما الناحية الاجتماعية فلم يعترها الكثير من التغير فالأمراء والسلاطين ، ومن حولهم مجتمع الصفوة من العلماء ورجال البلاط وكبار التجار يسيرون أمور الدولة والشعوب تدفع الضرائب ، وتزرع وتسمع قصص الحروب الصليبية وقصص الملوك وقليلا ما يتذمرون . نشطت التجارة والصناعة فى القرن الرابع عشر بعد إنهاء الحروب الصليبية الكبيرة ، وانتشرت الوكالات الكبيرة فى المدن . أما الصناعات فكان لكل صنعه شيخ ، ولها درجات من الحرفية وكان لشيخ الصنعة مركز اجتماعى لأنه يمثل كل أفراد المهنة . أما الجيوش فكان عمادها العنصر الكردى والتركى فى مصر والشام . ولم تشترك الشعوب فى العمليات الحربية الا فى بعض المعارك مثل معركة

المنصورة ، وفى دمياط ، وقد كانت مصر والشام فى عهد الدولة المملوكية من أغنى الأقطار الإسلامية ، وكان للدولة كثير من الصلات التجارية مع أوروبا وخاصة مع البندقية . فقد كان يمر بمصر أحد طرق التجارة العالمية الكبرى ، من الهند إلى البحر الأحمر إلى السويس ، فالقاهرة ثم موانى البحر المتوسط . كما كان يمر بالشام الطريق العالمى الآخر الذى يصل الهند برا عبر بادية الشام ثم نفوذها إلى أوروبا .

* * *

الحركة العلمية :

توقفت الحركة العلمية فى أثناء الحروب الصليبية فى فتراتها الأولى لمدة قرن تقريبا ، ولكنها عادت لشأنها القديم خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . فقد ظهر أبو الحسن على ابن النفيس فى دمشق فى أواخر القرن الثالث عشر الذى اكتشف الدورة الدموية وألف كتاب شرح القانون . كذلك خليفة ابن أبى المحاسن الحلبى ١٢٥٦ م الذى ألف كتاب الكافى فى طب العيون وإجراء عملية الكتراكت ، كذلك صلاح الدين بن يوسف من حماه ١٢٩٦ م الذى ألف كتابا فى طب العيون وأسمه نور العيون ، كما ظهر الشيخ أبو الفدا الذى ألف فى مختصر تاريخ البشر ، وهو كتاب فى الجغرافيا والتاريخ وهو من حماه . . أيضا ١٢٧٣ - ١٣٣١ م ، وكثيرون غيرهم من مصر والعراق . . وفى أوائل القرن الخامس عشر ظهر العلامة العالمى - كما يعترفون به الآن - ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع بلا منازع والمؤرخ المنهجى المتوفى عام ١٤٠٦ م وفى أواخر القرن الخامس عشر ظهر أحمد بن ماجد النجدى الذى ألف موجزا فى الملاحة النظرية والعملية ، وهو الذى قاد سفينة فاسكو دجاما من أفريقيا إلى الهند . . وليته ما فعل ! فقد كان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبالا على العالم الإسلامى ظهر أثره فى القرن السادس عشر وخاصة بالنسبة لمصر والشام . . وكان له أثر كبير فى التدهور الاقتصادى

والاجتماعى فيهما . . علاوة على العزلة التى فرضها تحول طرق التجارة العالمية وخاصة بعد تحول مصر والشام فى أوائل القرن السادس عشر إلى ولايات عثمانية .

التعـــليم :

أخذت مصر بنظام المدارس النظامية المختصة منذ العهد الأيوبى . وأول من انشأ المدارس المنتظمة الوزير السلجوقى نظام الملك وسار على هذا النهج الأيوبيون ومن بعدهم المماليك وقد ساعد على ذلك فى العصر المملوكى فرار كثير من العلماء والمدرسين من بغداد بعد دمارها على يد المغول ، الأمر الذى تكرر فى نهاية القرن الخامس عشر بالنسبة لعلماء الأندلس بعد سقوط غرناطه .

التجارة والصناعة :

تخللت الحروب الصليبية الطويلة هدنات طويلة الأمد . . جرى فى أثنائها اتصالات تجارية وشخصية بين المعسكر الإسلامى والصليبى مما أفاد الأحوال الاقتصادية للطرفين . فمثلا كان فى ميناء الاسكندرية فى شتاء سنة ١١٨٧ ـ ١١٨٨ م فى أوج مجد صلاح الدين الأيوبى سبع وثلاثون سفينة تجارية قادمة من الجمهوريات الايطالية (جنوه . . وبيزا . . والبندقية) وغيرها من الدول الأوروبية . ومن المعروف أن أعداد السفن تكون أقل ما يمكن فى الشتاء . . ومعنى ذلك أن عدد السفن على مدار العام أكبر بكثير من هذا الرقم . . ورغم محاولة البابوية منع التعامل مع المسلمين وخاصة بالنسبة للمواد الاستراتيجية كالحديد والأسلحة والأخشاب ، والتهديد بحرمان أى شخص يخالف ذلك من الكنيسة الا أن كثيرين . وخاصة من التجار البنادقة احتجوا على ذلك فخفف البابا الحظر غام ١٢١٥ م ليكون بالنسبة للأسلحة فقط . وفى هذه السنة بالذات أجتاز الاسكندرية ثلاثة آلاف تاجر غربى لاتينى . وأرتبطت الجمهوريات الايطالية بمصر والشام باتفاقيات تجارية عديدة قام بها السفراء . كما أن التجار الأجانب كانوا يقيمون فى فنادق خاصة بهم إذ كان للبنادقة فى الاسكندرية فندقان FONDACI وكذلك كان الحال فى

دمشق والشام ، وقد قامت الصناعة فى مصر على المنتجات الزراعية أساسا ثم على المواد الخام المستوردة مثل المصنوعات الحديدية التى تنتجها تنيس ، ودلاص . . كما أن المنسوجات الحريرية كانت تعتمد على حرير الشام ، وكان النسيج يعد من أهم الصناعات . . كذلك استخراج الزيوت والصابون وصناعة السكر . أما فى الشام فكانت صناعة النسيج القيم والسجاجيد . وقد تعلم الأوربيون صناعة الأقمشة الفاخرة من الشرق . . فمثلا قماش الموسيلين المعروف حاليا مشتق أسمه من الموصل ، وفى باريس على أيام فيليب الجميل أنشئت أولى مصانع السجاد الشرقى كذلك الصباغة وتثبيت الألوان باستخدام الشبة . وعرفت البندقية صناعة الزجاج الملون . ومن الشرق تعلم اللاتين صناعة الورق والحلوى والمنسوجات الكتانية . وأول من أدخل صناعة السكر فى أوروبا الامبراطور فريدريك الثانى وذلك سنة ١٢٣٩ م . حيث جاء بالصناع من الشرق وأنزلهم بصقليه ، وأستمر الحال فى نقل التكنولوجيا الشرقية إلى الغرب فى القرن الثالث عشر والرابع عشر . . عصرى بواكير النهضة الأوروبية .

* * *

الأحوال الاجتماعية :

زخرت القاهرة بالدور الضخمة ، والمنازل الرحيبة ، والأسواق الممتدة . وكان معظم مبانيها بالأجر ، وجوامعها ومدارسها أرضها مفروشة بالرخام ، والجدران بالكلس ناصع البياض . والدور مرتفعة حتى أربع طوابق أحيانا مع الأهتمام بالصرف الصحى فقد كان أرباب الدور يحرصون على حفر المرحاض حتى يصل إلى المياه الجوفية فلا يحتاج إلى الكسح . وكانت القاهرة ومعظم المدن الإسلامية مليئة بالحمامات الفاخرة . . وكان لوظيفة المحتسب أهمية خاصة فى تنظيم الحياة الاجتماعية فى مصر والشام . فمن مسئولياته مثلا مراعاة ما ينبغى أن تكون عليه الأسواق فى الأرتفاع والاتساع

وأن يكون بجانبي السوق إفريزان يمشى عليها الناس . . كذلك مراقبة بروز مصاطب الدكاكين على نسق الشارع ، وتوزيع دكاكين الحرف بما يناسب طبيعة الحرفة . فمن كانت صناعته تحتاج إلى استخدام النار كالحداد والخباز يجب أن تكون بعيدة عن محلات البزازين (الملابس) . . كذلك كانت مراقبة الأسعار احدى مهامه الأساسية .

أوروبا فى أثناء الحروب الصليبية :

كانت أوروبا أثناء الحروب الصليبية الكبرى تعانى فى الداخل صراعا بين السلطات الزمنية والبابوية . وقد شغلت كثيرا بصراع الامبراطور الألمانى فرديريك باربروسا والبابا . وقد إنتهك الجيش الألمانى حرمة كنيسة القديس بطرس ولاذ البابا اسكندر الثالث بالفرار . غير أن مقاومة مدينة ميلان القوية للجيش الامبراطورى جعلت الخصوم يتفاوضون عام ١١٧٧ م . والجدير بالذكر أن الحكم فى ألمانيا كان بالانتخاب بين الرؤساء القبليين ، أما فى ايطاليا فكان الجمهوريون لا يحترمون كثيرا الامبراطور الألمانى . . ومن أهم الأشياء التى أثرت فيها بعد فى خلق النهضة الأوروبية أسمان ملآ تاريخ ألمانيا وايطاليا الا وهما أسرة الجولفين وأسرة الهوهنشتاوفن أو الجبلنيين . وصار الأسم الأول يطلق على كل دوقيات سكسونيا فى شمال ألمانيا والآخر على دوقيات الجنوب الغربى ، كما صار أسم الجولفيين مرادفا لأنصار البابا ، والجبلينيين مرادفا لأنصار الامبراطور . وقد امتد تأثير هذين الإسمين إلى ميادين الشعر السياسى . فكان دانتى مؤلف الكوميديا الإلهية من الجبلينيين كما أن بترارك كان من الجولفن واستمر هذا التقسيم الحزبى حتى أوائل القرن السادس عشر عندما استولى لويس الثانى عشر ملك فرنسا على مدينة ميلان . وكانت حروب صار فيها الفرنسييون ومؤيدوهم من الايطاليين يمثلون حزب الجولفينيين ، كما صار الامبراطور مكسيمليان ومؤيدوه من حزب الجبلفيين . وحتى المدن الإيطالية فبعضها وقف مع البابوية والبعض مع الامبراطور . وانشغلت شعوب أوروبا بسؤال حول مسألة « السمو » أيها أسمى الامبراطور أم البابوية ؟ وكأنها قضية شعبية . . ينبغى أن تلاحظ هنا أن مثل هذه الحالة لم

تحدث فى العالم الإسلامى حتى عندما كانت الخلافة العباسية فى العصر العباسى الثانى صورية ، وكان الأمر بيد الملوك المحليين ، فقد اكتفى الخليفة العباسى بالرئاسة الروحية وكان يخطب له فى المساجد إلى جوار الملك أو السلطان . كما أن وجود نوع من الأنتخاب للأباطرة من أمراء القبائل أمر لم يعرفه أيضا العالم الإسلامى ، كذلك المدن الجمهورية . مما وسع اشتراك الشعوب الأوروبية فى صراعات السلطة . . وكأنها مدعوة لتحديد موقفها ، الأمر الذى لم يحدث بصورة ظاهرة فى العالم الإسلامى .

وربما كان التحزب الأول خلال الحروب الصليبية هو الذى وجه الأهتمام لدراسة القانون والمنطق واللاهوت وما تبع ذلك من ظهور تجمعات من المتعلمين أشبه ما تكون بالنقابات فى بولونيا وغيرها من المدن الايطالية . كما تكونت نقابة للمدرسين فى باريس . وقد أثر الفقه الرومانى بعد إحيائه فى جميع أوروبا وبدرجة أقل فى أنجلترا . . حيث لم يتلق الأنجليز المشتغلون بالقانون علومهم فى الجامعات التى كانت تدرس القانون المدنى والقانون الكنسى ، بل ابتدع الأنجليز مدارس مهنية وأسموها دار الحقوق فقد لصق الأسم بهذه المدارس منذ القرن الرابع عشر Inns of Court .

وقد اتفق المتعلمون أو اصطلحوا على أن تكون اللغة اللاتينية هى لغتهم فى غرب أوروبا ، وبدأ انشاء الجامعات ، حتى انه يمكن القول بأنه ما من مدينة ايطالية فى القرن الخامس عشر الا وكان بها جامعة هذا علاوة على الجامعات القديمة فى باريس وأكسفورد وكمبردج التى أنشئت فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والرابع عشر على الترتيب . وعقب انتهاء الحروب الصليبية الكبيرة وفى أواخرها حدثت حركة كبيرة لأحياء العلوم بأعمال الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية وحركة أكبر من الترجمة من العربية إلى اللاتينية وخاصة فى مجالات الطب ، والكيمياء والرياضة ، ولمعت أسماء كتب بعينها مثل كتاب الحيوان للجاحظ ، والقانون لابن سينا ، وكتب زهر الأشبيلى فى الطب ، ورسالات ابن رشد فى الفلسفة والخوارزمى فى الرياضيات وابن الهيثم فى نظريات الضوء وأخيرا ابن خلدون فى القرن الخامس عشر وغير ذلك كثير .

ولأن معظم هذه الترجمات حدثت فى أثناء سيادة روح التعصب الدينى الذى أثر على حيدة العلماء فقد لجأ الكثير ؛ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا) من المترجمين إلى إنكار الابداعات الإسلامية وخاصة أن علماء المسلمين فى كتبهم كانوا يذكرون من أخذوا عنهم من اليونان . فكان الأوربيون يسقطون أسماء العلماء المسلمين وينسبون ما ينقلونه ويترجمونه إلى من ذكره المسلمون من الأغريق وغيرهم بدافع التعصب وقد أدى ذلك فيما بعد إلى انتهاء العلوم فى غالب الأحيان إلى سلسلة أوروبية رومانية اغريقية . . وقد كان عملهم هذا تزييفاً مشيناً للتراث الإنسانى الذى خلفه المسلمون وأضافوا إليه الكثير . ولولا أمانتهم العلمية لغاب عن التراث الكثير من أسماء الأقدمين .

كان ذلك فى أثناء القرنين الثالث عشر والرابع عشر حيث زاد عدد المتعلمين إلى حدما ثم جاءت بواكير عصر النهضة فى القرن الخامس عشر والسادس عشر فوجدت سندا تستند إليه وتضيف عليه بناء جديدا .

الفصل الثانى
عصر النهضة الأوروبية

القسم الأول : ظروف بواكير عصر النهضة والإصلاح الدينى
القسم الثانى : أوروبا والعالم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر
القسم الثالث : أوروبا اللاتينية فى عصر النهضة
القسم الرابع : الثورة الصناعية فى أوروبا
القسم الخامس: الإستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر

القسم الأول
ظروف بواكير عصر النهضة والإصلاح الدينى فى أوروبا

يُعد القرنان الرابع عشر والخامس عشر بداية حركة إحياء العلوم التى مهدت لعصر النهضة حيث برزت على يد بترارك الشاعر الإنسانى الايطالى فكرة أن ثمة عصراً حديثاً قادم عقب عصر وسيط . . وقد استطاع بترارك - الذى كان يرى أن البربرية قائمة مستمرة منذ شرعت الإمبراطورية الرومانية فى قتال البرابرة بحسه المرهف أن يستشرف تباشير عصر جديد فقال :

(إن نوم الغفلة هذا لن يدوم إلى الأبد فعندما تتبدد طبقات الظلام تستطيع ذرياتنا أن تعود ثانية إلى ذلك التألق النقى السالف) وهو يقصد هنا مجد الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولا ننسى أنه كان من حزب البابوات متشبعا بأفكارهم .

ولابد من الإشارة إلى وجود خلافات فى الرأى حول تحديد نهاية العصور الوسطى فى أوروبا التى ظلت النظرة اليها على إنها عصور مظلمه فترة كبيرة إلا ان هذه النظرة قد تغيرت بعد فهم ومعرفة الانجازات الثقافية فى هذه المرحلة ، ولذلك أختلف المؤرخون فى تحديد نهايتها . فالبعض يعتقد أن نهاية القرن الثالث عشر قدمت لمرحلة جديدة من القرن الرابع عشر وحتى الثامن عشر فيها يسمى بمجتمع ما بعد الاقطاع وانتهاء السيطرة الدينية للكنيسة ، والبعض يعتقد انها تمتد حتى القرن السابع عشر حيث بدأت الثورة العلمية . وآخرون يرون أن الاصلاح الدينى هى بداية العصور الحديثة . غير أن غالبية المؤرخين يرون أن أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر قد شهدت تغيرات حاسمة على المستوى الداخلى فى أوروبا وعلى المستوى العالمى . فالاصلاح الدينى ١٤٨٣ م ، وطرد المسلمين من أسبانيا يناير ١٤٩٢ م ، واكتشاف طريق الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا ١٤٩٨ م ،

واكتشاف أمريكا بواسطة الأسبان أكتوبر ١٤٩٢ م وهى تغيرات حاسمة ، لذلك يمكننا القول بأن العصور الوسطى انتهت فى أوائل القرن الرابع عشر . . ثم بدأت مرحلة بواكير أو الاعداد لعصر النهضة حتى نهاية القرن الخامس عشر ثم عصر النهضة « الرينسانس » من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر ، ثم العصر الحديث عصر الثورة الصناعية الكبرى من نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن . .

ففى أوائل القرن الرابع عشر ضعفت البابوية أمام الأفكار المناوئة لها وأصبحت تابعة للسلطة الزمنية مما أتاح فرصة لاحياء العلوم حتى نهاية القرن الخامس عشر لذلك يمكننا الادعاء بأن الحروب الصليبية الكبيرة قد أنهت العصور الوسطى فى أوروبا وزعزعت مركز البابوية ، وأتاحت الفرصة لظهور الأفكار العلمانية مع حركة أحياء العلوم .

تغير المدارك الثقافية :

كان الأوروبيون طوال العصور الوسطى ينظرون إلى الماضى بإحساس غامر بالحنين إلى عالم اليونان والرومان الكلاسيكى المفقود . وكان هذا الحلم من أهم العناصر الديناميكية الخلاقه فى الثقافة الأوروبية . فقد قامت أكثر من محاولة للنهضة فى القرن التاسع ثم مرة أخرى فى القرن الثالث عشر . . ثم شهد القرن السادس عشر أزدهار الفن المعمارى والتصويرى وظهور عباقرة مثل جورج فازارى الايطالى (١٥١١ - ١٥٧٤ م) الذى ترجم سير الفنانين الايطاليين وكان يدعى ان مرحلة النهضة الفنية بدأت بأعمال المعمارى بروفللستشى (١٣٧٧ - ١٤٤٦ م) والمصور ماسيشيو (١٤٠١ - ١٤٢٨ م)

أما الإنجاز العلمى الكبير فى القرن السادس عشر فكان موضوع دوران الأرض حول الشمس للعالم كوبر نيكوس وفى مجال الموسيقى اقترب التدوين الموسيقى من صورته الحديثة التى تكتب بها الآن .

كما قام الفنانون الإيطاليون فى القرن الخامس عشر بتصوير رسم المنظور بإبراز الموجودات بشكلها كما يبدو لعين الرائى إذا ما نظر إليها من زاوية

بعينبها . وأهم الابتكارات ذات الأثر هو اختراع آلة الطباعة فى منتصف القرن الخامس عشر ، واستثمارها فى القرن السادس عشر ، واستخدام تكنيك الكليشيهات فى إعادة طبع الصور ويعد ذلك ثورة فى مجال المعلومات حيث أمكن لأول مرة نقل المعرفة والأفكار إلى عدد أكبر بكثير من ذى قبل .

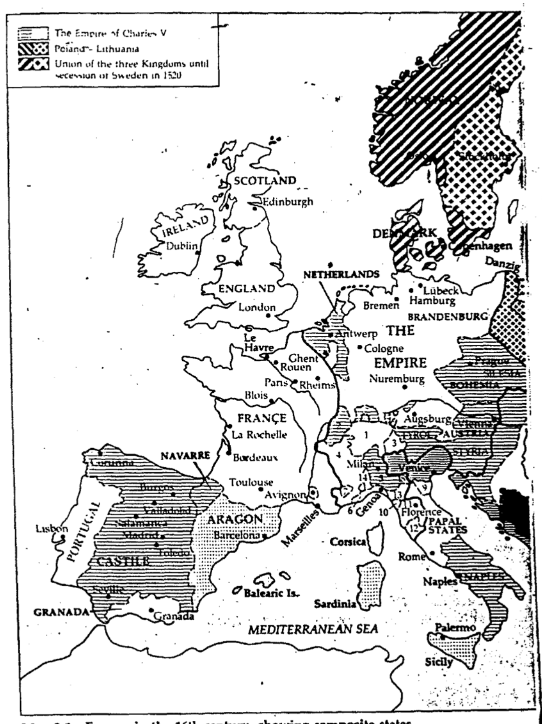
* * *

البنية السياسية الأوروبية قبيل عام ١٥٠٠ :

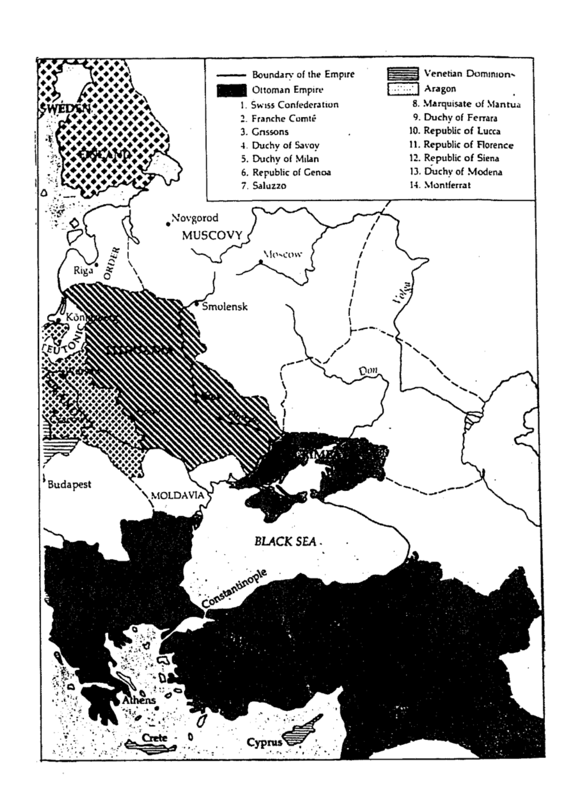
لم يكن استعادة الوحدة السياسية لأوروبا كما كانت فى عصر الامبراطورية الرومانية ممكناً رغم وجود بعض الوحدات السياسية الكبيرة إلى حد ما ، مما أتاح للملوك هذه الفترات تعزيز بلادهم بإيجاد عدد كاف من الرجال المهرة داخل حدودها ، وتحسين نظم الحكم ، ودفاعاتهم الحربية . . ولكن الاختلاف الثقافى والسياسى ظل قائماً بين كيانات أوروبا السياسية الكبيرة وحائلاً دون الوحدة السياسية .

الحالة الاقتصادية :

ابتداء من عام ١٥٠٠ م دخلت أوروبا عهداً من النماء إذ غدت عدوى الطاعون أقل حدوثاً ، وأخذ السكان يتزايدون وخاصة فى المدن ، واتسعت التجارة ، واغتنى أصحاب السفن وأصحاب المصارف . وقد جاء هذا النمو عقب الانكماش الاقتصادى فى نهاية العصور الوسطى (١٣٠٠ - ١٤٠٠ م) ومع التحسن البطىء فى طرق الزراعة واستحداث آلات أجود ومهارات استطاع الأوروبيون استخدامها بصورة أفضل وقد أدى ذلك إلى إنتاج مصنوعات أكثر وأحسن . أهمها بناء السفن السريعة والكبيرة ، وتنظيم التجارة ، والمعاملات المالية على نحو أكثر دقة . وقد قلل ذلك من تكلفة النقل ، كما تعرف التجار على إمساك الدفاتر وتحرير الحوالات وقد ساعد ذلك مختلف أنحاء القارة على القدرة تدريجياً على أن تجد داخل حدودها معظم ما تحتاجه من كفايات كما أن استخدام اللغة اللاتينية كلغة مشتركة بين المثقفين



Map 2.1 Europe in the 16th century, showing composite states



Boundary of the Empire
Ottoman Empire
1. Swiss Confederation
2. Franche Comté
3. Grissons
4. Duchy of Savoy
5. Duchy of Milan
6. Republic of Genoa
7. Saluzzo
Venetian Dominions
Aragon
8. Marquisate of Mantua
9. Duchy of Ferrara
10. Republic of Lucca
11. Republic of Florence
12. Republic of Siena
13. Duchy of Modena
14. Montferrat
SWEDEN
Novgorod
MUSCOVY
Moscow
Riga
ORDER
Smolensk
Volga
Don
Budapest
MOLDAVIA
BLACK SEA
Constantinople
Athens
Crete
Cyprus

قد ساعد على وجود الروابط الدولية بين صفوة المحترفين . وقد أدى ذلك إلى إنهاء النظام الإقطاعى الذى قام على ملكية الأرض وخدمة المالك وأن يحل محله علاقات قائمة على العقود والنقود أو على التحويل ، والوكالة وهى علاقات أكثر مرونة وقابلية للتكيف من العلاقات الإقطاعية القديمة .

الصراع الكنسى :

تمكنت البابوية فى روما من إقامة تنظيم مستقل عن الإمبراطورية المقيمة فى القسطنطينية تدعمها مجموعة من الأفكار التى تصون الكنيسة من تدخل القوى العلمانية . وذلك بخلاف الكنيسة الشرقية الخاضعة للامبراطور ، وكذلك الكنيسة الروسية التى اعتنقت المسيحية على يد الكنيسة اليونانية ، وسادت فيها نفس التقاليد الكنسية البيزنطية . . أما فى الغرب فقد حدثت صراعات هائلة بين البابوية وبين السلطة الزمنية دفعت هذه الصراعات كلا الطرفين : الكنيسة ، والدولة إلى تبرير مزاعم التقدم والاستعلاء التى كان يدعيها كل طرف فى مواجهة الآخر ، والتى كانت تصاغ بطريقة منطقية عقلانية . . وكان يبذل فى ذلك جهد كبير ودقة ملموسة . . وكان هذا تطورا فريدا من نوعه فى العالم سواء بالنسبة للعالم المسيحى الآخر (البيزنطى) أو العالم الإسلامى وقد نتج عن ذلك تقدم التحليل العقلى تقدماً كبيراً حتى على المستوى الشعبى . . وكان هذا أحد أعمدة النهضة الأوروبية اللاتينية .

وفى عام ١٤٥٣ م ، عندما سقطت الإمبراطورية الرومانية الشرقية بفتح القسطنطينية على يد السلطان الفاتح محمد الثانى وأحدث هذا الأمر صدى مدوياً فى كل أوروبا وبعد ذلك بسنوات قليلة عبر نفس السلطان الفاتح إلى الساحل الايطالى فى إترانتو معلناً عزمه على فتح روما ولكن وفاته حالت دون ذلك . ولم ينس الأوربيون أن البابوات هم الذين أضعفوا القسطنطينية وخربوها فى أثناء الحملة الصليبية الرابعة بتوجيه من البابا أنوسنت الثالث واحتلوها خمسين عاماً . وماذا كانت نتيجة الحروب الصليبية عندما أسلمت الملوك والشعوب الأوروبية زمامها للكنيسة . ؟ أليس الفشل وخراب البلاد

باسم الدين ! كانت هذه وجهة نظر العلمانيين الذين كانوا يصارعوّن السلطة الدينية ويعملون على التحرر منها تماماً . وأظن أن سقوط القسطنطينية قد أثار فكرتين بارزتين :

الأولى : تذكير الأوربيين بالتهديد الإسلامى فى غرب القارة والذى ما زالت بقاياه موجودة فى مملكة بنى الأحمر فى غرناطة فزادت الحمية الدينية ضد المسلمين .

والثانية : هى أن قيادة السلطة الدينية فشلت فى إدارة الصراع ضد الأعداء وعليها أن تتنحى للعلمانيين .

وظهر مارتن لوثر ١٤٨٣ - ١٥٤٦ م رافعاً شعار الحرية المسيحية ، وهو شعار مهذب للدعوة للتحرر من قيود البابوية ، وكان أهم إنجازات مارتن لوثر ترجمة الإنجيل إلى الألمانية التى تعد الخلق الحقيقى للغة الألمانية الأدبية . وقد شرح لوثر معتقداته الدينية المناقضة للكنيسة الكاثوليكية والمتحدية لبابا روما . وقد ارتبطت حركة الإصلاح الدينى بالمصالح السياسية والاقتصادية فقد كان بعض الأمراء والمدن الألمانية يزكون روح العداء ضد روما من أجل علمنة أملاك الكنيسة أو لقهر أعدائهم السياسيين . وقد ظهرت حركة إصلاح دينى مضادة « للبروتستنت » المذهب الجديد المتحرر هى حركة إصلاح دينى كاثوليكى أفلحت فى إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من التفكك الذى كان يهددها . أضافت هذه الحركات ديناميكية أكبر وتفاعلات أوسع شاركت فيها شعوب أوروبا جمعاء ورغم الفظائع والضحايا التى سببها الإصلاح الدينى فإنه أثمر ثمرته لصالح تقدم شعوب أوروبا ، وتحررها من سطوة الكنيسة وإنهاء عصر الخرافات . ولا ينسى الأوربيون ما حدث للعلامة جاليليو ، وكيف عاملته الكنيسة عندما قال برأيه عن دوران الأرض ، وكيف جثا على ركبته منكراً ما قال وتائبا عنه . وهناك ما هو أفظع من ذلك فلم يكن الطريق للتحولات الاجتماعية فى المجتمع الأوروبى مفروشاً بالورد بل من خلال مقاومة عنيفة من رجال الدين ، ورجال السياسة ، فقد عانى الكتاب والشعراء

والفلاسفة والفنانون فى بواكير عصر النهضة فى القرن الخامس عشر اضطهاداً مريراً على أيدى المتعصبين ، فعلى سبيل المثال ظهر فى مدينة فلورنسا بإيطاليا راهب قوى التأثير شديد التزمت وله جمهور كبير من العامة وأنصاف المتعلمين اسمه « جيرولا سافونا رولا » ، أخذ يندد بالمفكرين والفنانين ويكفرهم ، ويأمر أتباعه من الدهماء المفتونين به فيهاجمون البيوت ويصادرون التحف واللوحات والكتب الأدبية الفلسفية كمؤلفات أفلاطون وأرسطو وروايات بوكاشيو وقصائد بترارك ، ويجعلونها أكواماً فى الساحات العامة والميادين ويشعلون فيها النيران . وقد حرم هذا الراهب الموسيقى ، والرقص ، والغناء . . وخصص فرقة من أتباعه للتجسس على المواطنين وكشف عوراتهم ومعاقبة المخطىء منهم من وجهة نظره وخاصة النساء المتبرجات أيضاً حسب تقديره . . فكن يجلدن فى الميادين والأسواق . ومن الغريب والطريف أيضاً أنه أنشأ بنكاً لإقراض الناس بلا فوائد سماه بنك التقوى . ولا زال فى الشرق من يكرر صورة هذا الراهب فى نهاية القرن العشرين . وكأن المتعصبين المرضى الموجودين فى كل الأديان تخطر لهم نفس الأفكار . . لا لشىء إلا للتسلط على الغير باسم الدين والتقوى .

ولم تستمر هذه المقاومة بهذا العنف كثيراً أمام التحولات الكبيرة ، وإن كانت لم تختف تماماً . فقبيل الثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر تم إحراق رسائل فولتير الفلسفية كذلك صادرت الحكومة الفرنسية مؤلفات لجان جاك روسو فى التربية . . بل إنها أمرت بالقبض عليه مما دفعه للهروب لانجلترا .

الإصلاح الدينى :

إن التراث الدينى جزء هام من حضارة الإنسان . . ولكن قد يحدث أحياناً خلل فى حجم هذا الجزء الهام جداً بالنسبة للأجزاء المكونة لحضارة الإنسان سواء بالزيادة أو النقصان . وينعكس ذلك دائماً بالسلب على المجتمع الذى يعيش هذا الخلل . ففى أوروبا وقبل الإصلاح الدينى كان هذا الجزء يملأ حياة الإنسان العادى بنسبة كبيرة جداً فحدث التعصب والإرهاب

الفكرى والمادى وإثارة المشاعر الدينية . وعادة ما يكون ذلك فى عصور الاضمحلال . . أما فى عصور القوة فنجد الإيمان العميق مقروناً بالتسامح ، واحترام معتقدات الآخرين . ومثال ذلك عصر الخلافة الأموية فى الأندلس حتى القرن الحادى عشر الميلادى . وثمة مشكلة كبرى يسببها التراث الدينى (وليس الدين نفسه) عندما يبدو فى بعض أجزائه متناقضاً فى نظر الإنسان العادى . سواء كان هذا التناقض ظاهرياً أوحقيقياً نتيجة شوائب مدسوسة على التراث الدينى . فالإنسان العادى العميق الإيمان القليل الثقافة سوف يتوقف عند هذا التناقض لفترة قصيرة مبلبل الفكر ولكن ما يلبث أن ينفض يده من المسألة برمتها مفضلاً الانقياد لرأى الآخرين من رجال الدين الغير مؤهلين الذين قد يحلوا لهم تعقيد الأفكار وتضخيم الشروح والإضافات ليؤكدوا أهميتهم فى عيون العامة . وبتكرار ذلك يتعود الإنسان العادى على عدم احترام عقله رويداً رويداً ، ويتحول إلى متفرج ليس بالنسبة للمسائل الدينية فحسب بل والدنيوية أيضاً . . ولا أريد أن أدخل فى هذا الموضوع الشائك وإنما أشير إلى أن شغل العقل العادى بكثير من المسائل الدينية يرهقه أولا . ثم يصير الاستسلام صفة غالبة عليه فإذا عدنا لنجاح حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا التى مهدت لها حركة الانسانين فى القرن الرابع عشر نجد أن الإصلاحيين ومشجعيهم تشبثوا بالعقل والمنطق وحرية الإنسان فى محاجاة الكنيسة وسلطتها على الناس . وقد ردت الكنيسة بإصلاح دينى كاثوليكى مضاد يتضمن بعض التراجع عن مكانتها السابقة ، الأمر الذى سبب استمرارها ومنع هزيمتها تماماً أمام الإصلاحيين . وفى أثناء ذلك الصراع قدم كل طرف أفضل ما عنده من أسانيد منطقية للشعب الأوروبى . ورغم كل التجاوزات والضحايا إلا أن الشعوب هى التى استفادت باعتيادها على التحليل العقلى الذى خوطبت به . من كلا الطرفين ، ووجد الإنسان العادى نفسه مشاركاً وليس متفرجاً والحقيقة أن هذا الصراع لم يكن الدين نفسه داخلاً فيه وإنما كانت سلطة الكنيسة وسيطرتها محل النقد والجدل . وأن تحرير العقل من الهيمنة كان هو الهدف . . ولك أن تتخيل أيها القارىء عندما انشغل عامة

الناس فى أثناء الصراع بين البابوات والملوك فى مسألة السمو . أيهما أسمى من الآخر البابوية أم الإمبراطورية ؟ . . التى يمكن ترجمتها إلى مسألة أخرى ، الدين أم الدنيا أو وجه آخر هل نهتم بمشكلات الواقع المعاصر . . أم ننتظر ملكوت السماء . هل الإنسان مسئول عن تغير واقعه إلى الأفضل أو أنها مسئولية المسيح عندما يهبط ؟ . . وهكذا . .

إن رجال الدين الكلاسيكيين بحكم دراساتهم الكهنوتية المغرقة فى القدم كانوا يعيشون ما يقرءون من ثقافة ، بل يكادون يتقمصون شخوص القديسين والرسل . وبلغ الأمر فى عصور الظلام الأوروبى . . أنهم كانوا يعدون عدم الاستحمام فضيلة ودليلاً على الزهد . فقد جاء فى تزكية أحد رجال الدين لأحد المناصب أنه لم يستحم فى حياته إلا مرة واحدة . لذلك كانت وقفة الشعوب الأوروبية مع رجال الدين ضرورة لتحرير العقول والنفوس من الخرافة والسيطرة باسم الدين وخاصة عندما تتحول الدعوة الدينية لفرض صور معيشية فى قرون سابقة . . فتقليد السلف الصالح فى أسلوب المعيشة أمر بالغ الخطر ، حيث يجعل الإنسان يمشى فى واقعة وعنقه ملوية إلى الوراء ، وعادة ما يكون ذلك على حساب عمق الإيمان حيث ينشغل العقل الساذج بالشكل فقط ، فقد حدث فى الغرب فى العصور الوسطى إن كانت كل الأمور الدينية والدنيوية فى أيدى الكنيسة متمثلة فى البابا والقساوسة والرهبان . . وذلك على عكس الكنيسة فى الإمبراطورية الشرقية . . التى كانت تخضع للامبراطور الذى يقيم فى القسطنطينية . . وأدى استقلال بابوات روما لتمكنهم من إقامة تنظيم مستقل تدعمه مجموعة من الأفكار اللاهوتية التى تحمى الكنيسة من تدخل القوى الأخرى زمنية أو علمانية . وفى عهد البابا أنوسنت الثالث ١١٩٨م - ١٢١٦ بلغت البابوية أقصى قوتها حتى لقد قال هو أنه لا خلاص لإنسان فى العالم ما لم يخضع للبابا ، فأنا قيصر وأنا الامبراطور الحقيقى صاحب السيادة على جميع أمراء الأرض . . إن استقلال الكنيسة عن كل السلطات وطاعة الناس العمياء للكنيسة ورجالها ونظرة الناس لها كشىء مقدس يعلو على النقد وسلطة العقل جعل الكنيسة تفرض سلطانها وتتدخل

بين المرء وربه ! . . وتصادر الأفكار وتحارب العلم وتقف حجر عثرة فى طريق التنمية والتقدم ، كل ذلك من أجل حماية نفسها ومركزها ، وحرصاً منها ومن رجالها على الثروات الهائلة التى كانت تستحوذ عليها بكل الوسائل ، وكذلك على المناصب الهامة التى كانوا يشغلونها فى الكنيسة أو الدولة . أما عن التدين فكان رجال الكنيسة أبعد ما يكونون عنه . لا يهتمون إلا بظواهره دون جوهره ولبه ولا يحثون الناس إلا على اقتناء مخلفات القديسين والرسل وصورهم والحج إلى مدافنهم ، وتعذيب الناس لأجسادهم وتلاوة الأدعية فى داخل الكنيسة باللغة اللاتينية التى كان يجهلها سواد الناس ولا يعرفون لها معنى وكان فقراء الرهبان والقسس يعيشون عيش الكفاف . . أما ذوو الدرجات والمراتب الكنسية العليا فكانوا يعيشون عيشة الترف والللذات بفضل سيطرتهم على أملاك الكنيسة العظيمة ، إلى جانب ما كانوا يجمعونه من بيع صكوك الغفران إلى الناس فى مختلف الأمم الأوروبية . كانت تلك الصكوك فى بادىء أمرها عفواً يمنح من البابا إلى المذنبين إذا ما اعترفوا بذنوبهم وندموا عليها فيرفع بذلك عقاب الكنيسة عن مشترى هذه الصكوك ، ثم وجدت البابوية فى عملية بيع الصكوك مورداً ضخماً فتوسعت فى بيعها حتى أخذ الناس يعتقدون أنها تعفيهم من عقاب الكنيسة وعقاب الآخرة معاً . . فصار الناس يشترونها من أجل موتاهم أيضاً كى تغفر لهم ذنوبهم . .

وفى آواخر القرون الوسطى بدأت أوروبا تدخل فى طور نهوض عظيم أدى إلى نشوء الحضارة الغربية التى ينعم الغرب بها الآن وإلى تكوين الدول الأوروبية والتى لم تصبح أمماً مستقلة متميزة بعضها عن بعض إلا بعد أن نبذت الفكرة التى كانت تدعو فى العصور المظلمة إلى جعل جميع الأقطار المسيحية دولة واحدة يسيطر عليها حاكمان البابا والامبراطور . .

نشأت الحضارة الأوروبية الحديثة كما أسلفنا نتيجة لعصر النهضة (الرينسانس) وإن اختلفت آثار النهضة فى البداية فى شمال أوروبا عنها فى الجنوب . . وقد شجعت النهضة الناس على حرية النقد نتيجة لحركة إحياء العلوم فاتجهت قوة النقد فى جنوب أوروبا (إيطاليا) نحو نقد الآداب

والفنون . . أما فى الشمال التيوتونى (ألمانيا) . فقد تناول النقد الأنظمة الدينية والكنسية . . والسبب وراء ذلك هو أن المدنية الإيطالية أقدم من المسيحية . . أما المدنية الشمالية فلم تأت إلا عن طريق المسيحية نفسها ؛ لذلك انكب الناس هناك على البحث عن أصول الدين ومراجعة كتب القديسين الأوائل حتى يتبينوا حقائق دينهم وكشفوا فساد الكنيسة ، ومخازى رجالها هادفين إلى العودة إلى مسيحية القرون الأولى عندما كانت الكنيسة لا تعنى سوى بشئون العقيدة والدين . لذلك استولت الحركة البروتستانتية على عقول الناس قبل قلوبهم . واكبت تلك الحركة سلسلة متكاملة من التحولات الاقتصادية أفاد منها التجار ورجال المال الذين لم يكن بإمكانهم التعايش مع الطبقة الحاكمة الإقطاعية التى كانت تفرض الضرائب على التجار ، وتتعاون مع الكنيسة على فرض أسعار ملائمة وتحريم الفائدة على النقود باسم الربا ؟ . . أما العامة فقد حققت عن طريق البروتستانتية إشباعاً كبيراً لعواطفها الدينية والوطنية . . وفى كتابات لوثر صدى لحب ألمانيا وتمجيدها وكراهية الأجانب أى الإيطاليين فنراه يقول : « إن روما هى أخطر لص وأكبر سارق ظهر على سطح الأرض فى الماضى أو المستقبل . . آه يا لبؤسنا نحن الألمان . . لقد خدعنا ! ولدنا لنكون سادة ولكننا أجبرنا على أن نحنى رقابنا تحت نير الطاعات لقد حان الوقت لكى يكف الشعب التيوتونى المجيد عن أن يكون دمية فى يد بابا روما » . . جاءت البروتستانتية لتدعم اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والسلوك للجماعات ذات العصبية الواحدة التى نسميها أمماً . وحققت انفصالاً صريحاً وناجحاً عن الكنيسة الكاثوليكية وصارت أحد المعالم الكبرى فى تاريخ الغرب إذ وقفت إلى جانب الحرية الفردية والحكم الذاتى الدميقراطى على حين كان الكاثوليك يقفون مع السلطة والامتيازات . وكان لوثر يصيح قائلاً (طالما أن القسيس الكاثوليكى أصبح عقبة بين الإنسان والرب فالواجب يقتضينا أن نتخلص من كل ما يشكل عقبة على هذا النحو ليكن كل إنسان قسيس نفسه وإنها لجرأة تبلغ حد الوقاحة حين يزعم أن الله العلى القدير يرضى بأن يتدخل جهاز تافه مثل الكنيسة فى علاقته مع عباده . .

علاوة على أن الله بسط نواياه ومقاصده واضحة فى الكتاب المقدس الذى يستطيع كل إنسان أن يقرأه لنفسه وبنفسه دون وساطة قسيس) .. وبهذا كانت البروتستانتية تستهدف إسعاد الفرد (ولكن وفق الأسلوب المسيحى بطبيعة الحال) بدلا من استغراق الفرد فى البحث عن تحقيق السعادة فى السماء ، وبذلك انتقلت الجهود للبحث عن الكمال على الأرض فى مجال آخر هو الذى اصطلح على تسميته بـ « التنوير » .

* * *



Plate 2.4 Titian: *Pope Paul III and his Nephews (i.e. grandsons) Ottavio and Cardinal Alessandro Farnese*, **1546.** National Museum, Naples.
The self-willed old pope turns, angrily according to some critics, to his obsequious grandson Ottavio, while the young cardinal appears pained and detached. Not long afterwards the two young men were to betray their grandfather by negotiating with Ferrante Gonzaga, imperial governor of Milan and reputed murderer of the pope's son and their own father. While Titian could not have foreseen this dénouement he portrayed the characters as in a Shakespearean tragedy. Burckhardt's thesis of the discovery of the individual in the Renaissance is certainly true of the great portrait painters of the period.

القســم الثانى

أوروبا والعالم فى القرنين السادس عشر والسابع عشر

التحولات الهامة فى القرنين السادس عشر والسابع عشر :

استقبلت أوروبا القرن السادس عشربعد أن شعر الأوربيون بأنهم ردوا اللطمة لطمتين للعالم الإسلامى الذى صفعهم صفعة قوية بفتح القسطنطينية فى منتصف القرن الماضى . . أما اللطمتان فهما طرد المسلمين من أسبانيا عام ١٤٩٢ م ، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٨ م لمحاربة التجارة الإسلامية . . هذا علاوة على انتصار آخر لا علاقة له بالصراع التقليدى وهو اكتشاف القارة الأمريكية . وقد كان لهذا تأثير قوى فى رفع الروح المعنوية ، وروح المغامرة لدى الأسبان والرغبة فى تعقب المسلمين المنهزمين حديثاً ، وسرت روح صليبية جديدة بقيادة الأمير هنرى الملاح الذى وهب حياته لمطاردة المسلمين على الساحل الأفريقى . والحقيقة أن ارتفاع الروح المعنوية العالية لدى الأسبان بما أنجزوه مؤخراً أحدث نشاطاً ورغبة فى المغامرة واقتحام الصعاب ، فعندما تبتهج الشعوب وترتفع معنوياتها تتشوق لاستمرار النجاح . وقد حدث فى هذه الفترة أن طوّر (مجرد تطوير) أحد المهنيين البرتغاليين فى صناعة السفن هيكل السفن المستخدمة فى ذلك الوقت ليكون أكثر استطالة ورشاقة مما أعطاها سرعة أكبر وقدرة أكثر على المناورة لتتفوق على الأنواع القديمة علاوة على حملها عددا أكثر من المدافع مما وفر للسفن البرتغالية سرعة وقدرة على المناورة مع زيادة كمية النيران . أحدث هذا التطور انقلاباً فى عالم السفن البحرية الشراعية . ولم تمض إلا أعوام قلائل إلا وكان الأسطول البرتغالى أقوى أسطول بحرى فى العالم .

وباكتشاف أمريكا أسس الأسبان والبرتغاليون امبراطوريتين فيما وراء البحار فى العالم الجديد على أنقاض حضارتين كانتا على درجة أقل من التقدم هما حضارتا الأزدك والأنكا من الهنود الحمر الأمريكيين . وكان التغلب عليهما



الملك الأشرف السلطان قانصو الغوري (١٥٠١ - ١٥١٧).

سهلاً ووحشياً نظراً للتفوق العسكرى الكبير . أما انتصارات البرتغال فى المحيط الهندى فكانت ترجع للتفوق فى فنون الملاحة والقدرة على المناورة وعلى براعة وكفاءة المدفعية البحرية . وقد حاول السلطان الغورى التصدى للبرتغاليين بحرياً بالتعاون مع العثمانيين فقد وصل البرتغاليون بأسطولهم إلى البحر الأحمر وعدن لقطع طرق التجارة الإسلامية المارة بمصر ، وحاولوا عقد حلف مع الحبشة للتأثير على مصر وتحويل مجرى النيل . . مما دفع السلطان الغورى إلى إرسال حملة بحرية بقيادة أمير البحر حسين الكردى لمحاربة الأسطول البرتغالى واللحاق به وأنزل به فعلاً هزيمة كبيرة فى صيف ١٥٠٨ على شاطىء الهند الغربى قرب جاول Gaul ولكن هذا الأسطول نفسه هزم فى السنة التالية من الأسطول البرتغالى فى معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ قرب سواحل الكوجورات فى هذه الفترة دب الخلاف بين الدولة المملوكية فى مصر وبين العثمانيين حول أسلوب مقاومة الأسبان والبرتغال كذلك بسبب رفض مصر الوقوف إلى جانب العثمانيين ضد الصفويين الشيعة الأمر الذى انتهى بغزو العثمانيين لمصر عام ١٥١٧ ، وإنهاء الدولة المملوكية المصرية ، وانتقال مصر وممتلكاتها إلى الدولة العثمانية وأصبحت مصر ولاية عثمانية . . وقد أفاد ذلك البرتغال حيث أن مصر المملوكية لم تكن دول برية فقط كالدولة العثمانية فى ذلك الوقت بل كانت لها خبرة بحرية كبيرة . ومنذ ذلك الحين تصدت الدولة العثمانية منفردة للدفاع عن العالم الإسلامى وبدأت فى تكوين أسطول بحرى قوى لمنازلة البرتغال .

* * *

كان القرن السادس عشر عصر تكوين الامبراطوريات فمثلاً قام بابر سليل جنكيز خان من تركستان لفتح شمال الهند حيث أرسى حكم المغول هناك ، كما أسس العثمانيون امبراطورية ضخمة ضمت كل شبه جزيرة البلقان والشام ومصر والعراق ، والجزيرة العربية ، واليمن ، وشمال أفريقيا عدا المغرب الأقصى ، وبسطوا نفوذهم على البحر الأسود والقرم . وفى أواخر القرن السادس عشر قام الروس بفتح وادى الفولجا حتى بحر قزوين . وبدءوا

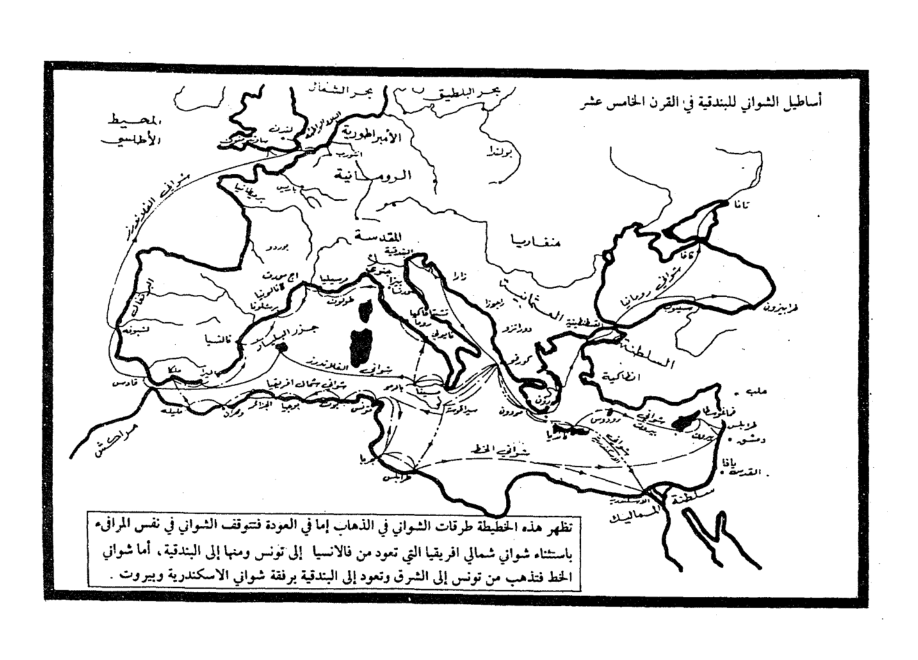
هجومهم الكبير من سيبريا إلى المحيط الباسفيكى . وفى الصين كانت أسرة منج قد كونت امبراطورية ضمت الصين وفيتنام .

ولا يفوتنا أن نذكر أن التوسع الروسى كان فى وادى الفولجا ضد التتار المسلمين . .

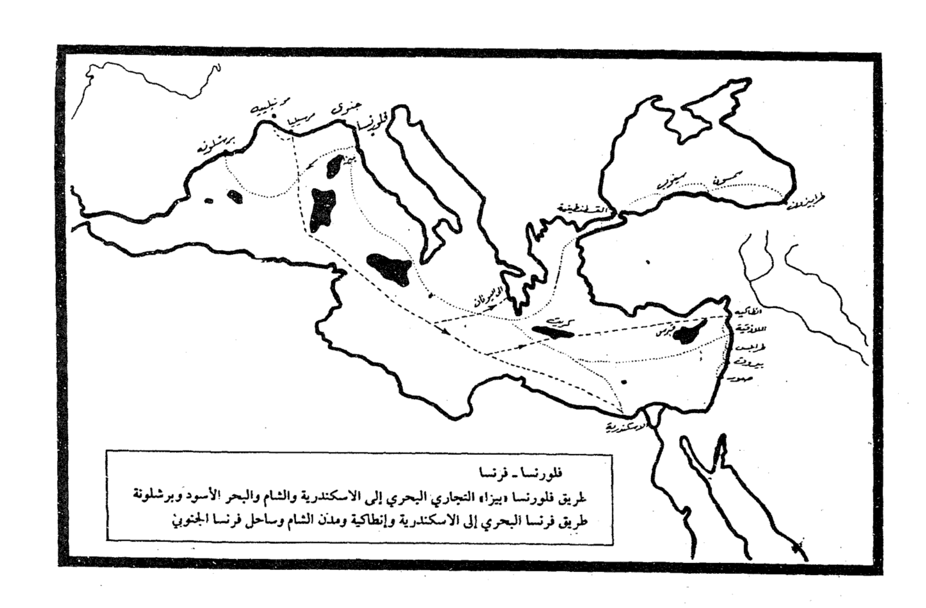
وفى نهاية القرن السابع عشر كانت القوى الأوروبية فى تنافس واضح ، وكانت السرعة التى يتم بها التقدم فى أوروبا أكثر بكثير من سرعته فى الحضارات الكبيرة الأخرى . كما أن حملات الاستكشاف الأوروبية أسهمت فى نجاحات تكنيكية فى مجال بناء السفن ، والملاحة ، والتنظيم السياسى ، والتجارى ، كما نشأت نظم تجارية دقيقة وإن كان أساسها العلاقات النفعية على عكس التجارة فى العالم الإسلامى التى عجزت فيما بعد عن منافسة التجارة الأوروبية لأن لها خصائص أخرى . فقد كان التجار المسلمون وخاصة فى أفريقيا وجنوب شرقى آسيا والهند هم الذين نشروا الدين الإسلامى وحببوه إلى السكان المحليين وصاهروهم إلى جانب ممارسة التجارة القائمة على النفع المتبادل ، والخلق السمح فى المعاملات . ومع اللين والتسامح ضعفت الحاجة للدقة ، دقة التنظيم التجارى الصارم الذى تبنته أوروبا فى عصر التحول الاقتصادى فى القرن السادس عشر ولم تستطع العقلية الإسلامية التجارية والاقتصادية إدراك تغير لغة العصر فى الاقتصاد فجاءت محاولات التقدم دون المستوى اللازم لمنافسة الأوروبيين . وقد اتخذ الأسبان والبرتغاليون مواطىء أقدام على ساحل الهند وأفريقيا والجزيرة العربية والخليج العربى ، وعقدوا اتفاقيات تجارية مع الحكام المحليين بهدف السيطرة التجارية ولكنهم لم يحققوا نجاحاً كبيراً مثل نجاحهم فى امبراطورياتهم فيما وراء البحار . التى أنعشت أوروبا كلها بفضل الفضة من المكسيك وبيرو . . وللحقيقة إن ما فعله الأسبان والبرتغاليون من أبناء الجيل المنتشى بفرحة النصر فى فى الصراع ضد المسلمين غير المؤمنين بدين المسيح فى شعوب القارة الجديدة كان بشعا فقد ارتكبوا أبشع الجرائم الإنسانية وعاملوا سكان أمريكا باعتبارهم وثنيين لا حقوق لهم وكانوا متعصبين ، شأنهم شأن المسلمين المتعصبين للإسلام فى الهند وإساءتهم

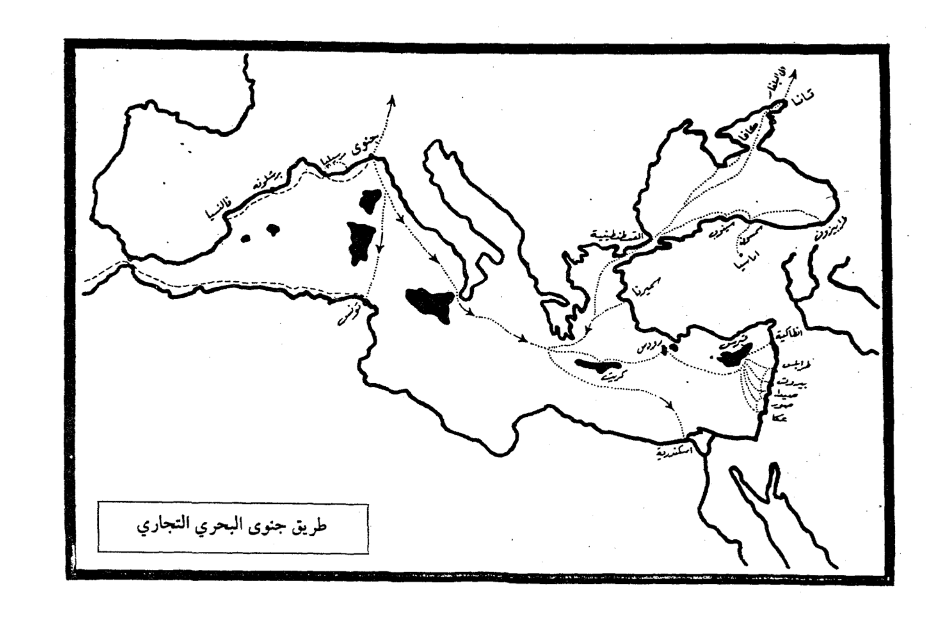


الطريق البحري الرابع من الصين والهند إلى الخليج الفارسي «العربي» ومراكزه التجارية.



تظهر هذه الخطيطة طرقات الشواني في الذهاب إما في العودة فتتوقف الشواني في نفس المرافىء باستثناء شواني شمالي افريقيا التي تعود من فالانسيا إلى تونس ومنها إلى البندقية، أما شواني الخط فتذهب من تونس إلى الشرق وتعود إلى البندقية برفقة شواني الاسكندرية وبيروت .


برشلونة
مونبلييه
مرسيليا
جنوى
فلورنسا
بيزا
القسطنطينية
سينوب
سمسون
طرابزون
كريت
قبرص
انطاكيه
اللاذقية
طرابلس
بيروت
صور
الاسكندرية
فلورنسا ـ فرنسا
طريق فلورنسا «بيزا» التجاري البحري إلى الاسكندرية والشام والبحر الأسود وبرشلونة
طريق فرنسا البحري إلى الاسكندرية وإنطاكية ومدن الشام وساحل فرنسا الجنوبي



طريق جنوى البحري التجاري

معاملة الآخرين باسم الدين وتعصب العثمانيين أحياناً كدولة عسكرية تغلب عليها الصفة الدينية .

وقد انشغل العالم بالصراع العثمانى البرتغالى طوال القرن السادس عشر والسابع عشر ورغم طرد الاستعمار البرتغالى من العالم الإسلامى إلا أن طرق التجارة مع الشرق لم تعد كما كانت مما أثر على الأحوال الاقتصادية تأثيراً سلبياً فى مصر والشام .

الحكومات الملكية الجديدة فى القرن السادس والسابع عشر :

نجحت الحكومات الملكية فى مواجهة سلطة النبلاء والأشراف بفضل التحولات الاجتماعية التى حدثت فى المجتمع الأوروبى من تصفية للعلاقات الاقطاعية القديمة بين الاشراف والاتباع . كما أن الجيوش التقليدية من الفرسان الاقطاعيين ثبت فشلها أمام قوات المشاة المحترفة العالية التدريب . وكان للسويسريين ميزة الريادة فى الاعتماد على هذا النوع . . كما أن القلاع الإقطاعية القديمة قد انهارت أمام قوات نيران مدافع الحصار الجديدة وبذلك حصل الملوك على ميزات كبيرة . . وكان على الأشراف أن يتخلوا عن فكرة الاحتفاظ بالحكم الذاتى أو استقلالهم عن الملك .

وقد أقام الأسبان مجالس شورى ملأوها بوظائف تخصصية لتسيير شئون الدولة مثل الحروب والمالية ، المستعمرات الحديثة . . إلخ . وكانت هذه المجالس خليطاً من القانونيين ورجال الإدارة المحترفين ، وأعضاء من طبقة النبلاء . وقد اتبعت كل من فرنسا وانجلترا نفس النماذج الأسبانية . التى هى فى الحقيقة نماذج أندلسية إسلامية حيث كان هناك كبير وزراء ، ووزراء متخصصون . أما فى الدولة العثمانية فكان الأمر مختلفاً وأكثر تعقيداً . . فالحكام العثمانيون اعتبروا سلطتهم سلطة مطلقة ؟ . . ورغم أن السلطان لا يمكنه التشريع وفقاً لمبدأ أن الراعى والرعية خاضعان للشريعة الإسلامية ، أى أن السلطة المطلقة لا تعتمد على نظرية استبدادية !! . . إلا أن سلطته المطلقة استقرت بفضل نظام الطاعة الواجبة الذى اتبعه العثمانيون ابتداء من

تشكيل جيش ونظام للخدمة المدنية يتألف من أرقاء خصوصيين ونظام الرق هذا مختلف تماماً عن أى رق آخر فى أوروبا أو فيها وراء البحار أو أى جهة فى العالم . . ففى الوقت الذى كانت طاعة الأرقاء واجبة مثل العبيد إلا أنهم كانوا يحتلون مركزاً اجتماعياً عالياً ومشرفاً ، فقد كان فى وسع هؤلاء الوصول إلى أعلى مناصب الدولة . . أو أن يطمع أحدهم فى طلب يد شقيقة السلطان أو كريمته . وكانت صفوة الجيش هى الانكشارية (المشاة) والإسباهى (الفرسان) . أما بقية الجيش فكان مكوناً من أصحاب الاقطاعيات التى كانت أيضاً تختلف عن نظيرتها فى الغرب فى عدم التوريث ، وإنما كانت توزع كمكافآت لذلك كانت كلا من قوات الصفوة أو طبقة أصحاب الاقطاعيات مهتمة بالتوسع المستمر حتى يتسنى للسلطان توفير اقطاعيات أكثر ، فلما توقفت الفتوحات كان لابد من فرض ضرائب ، وما يستتبع ذلك من ظلم وفساد على عكس الأيام الأولى للفتوحات العثمانية . . التى كان يرحب الفلاحون المسيحيون أحياناً بها . وفى نهاية القرن السادس عشر بدأت قوات الصفوة فى التدخل فى شئون الحكم ، وفقد مبدأ الطاعة الواجبة احترامه ، لدرجة اشتراك الانكشارية فى قتل السلاطين . . وهكذا أصبح الأرقاء سادة يتحكمون ويحكمون مما دعى السلاطين للتخلص من هذا النظام الذى أعلن عن فشله منذ القرن السابع عشر . أما العلاقات الاجتماعية فلم تتطور فى اتجاه العدل الاجتماعى . . وثبتت عند المفاهيم النظرية فى التراث الإسلامى ولم تتحول إلى واقع ملموس ، كما أن أصحاب الفكر أو الرأى كانوا دائماً يدافعون عن حق السلطان فى أن يفعل بشعبه ما يشاء .

* * *

القسم الثالث

أوروبا اللاتينية فى عصر النهضة

سبق أن أشرنا إلى حركة الاصلاح الدينى التى امتدت حتى القرن السادس عشر وسببت لأوروبا كلها آلاما كآلام المخاض نتج عنها نجاحات كبيرة وآثار عظيمة رغم الحوادث الدامية والفظائع والرحيل الاجبارى عبر المحيط إلى أمريكا ، ورغم اختفاء النظام الإقطاعى القديم تقريبا فأصبحت حيازات الفلاحين مصونة بالعرف والقانون ، وصار الأمراء والملوك يهتمون بالمحافظة على حياة الفلاحين بصفتهم دافعى الضرائب والمجندين فى جيوشهم غير أنهم كانوا مرهقين . . وقد أدى ذلك إلى حدوث ثورة فلاحية كبيرة فى القرن السادس عشر ١٥٢٤ ـ ١٥٢٥ امتدت من الغابة السوداء إلى وسط وجنوب ألمانيا وأقاليم الألب . . أما فى انجلترا فى القرن السادس عشر فقد كان ملاك الأراضى إما يزرعون ضياعهم بأنفسهم أو يؤجرونها للفلاحين بعقود قصيرة الأجل مما جعلهم أقل ارهاقا من زملائهم داخل القارة بسبب رقابة البرلمان الانجليزى على فرض الضرايب .

النهضة العلمية فى أوروبا اللاتينية :

مهد للحركة العلمية ظهور المذهب الإنسانى أو جماعات الإنسانيين فى القرن الرابع عشر . . ففى الحقبة الأولى من عصر النهضة دفع حب الحقيقة والبحث عنها الناس فى اتجاهها متحمسين ومتجردين . وكانوا أكثر اهتماما بالانسان ، ولم يبدءوا بما نسميه اليوم بالعلوم التطبيقية . . ويهدف هذا المذهب من العودة بالإنسان إلى كرامته الفردية إلى تحرير فكرة وتوسيع علمه ومعارفه . وقد نشأ جماعة من أهل الفكر والشعر ضاقوا بما فرض عليهم رجال الدين والاقطاع من قيود فى الفكر والعمل والمزرى بالانسان . وكانت وسيلتهم

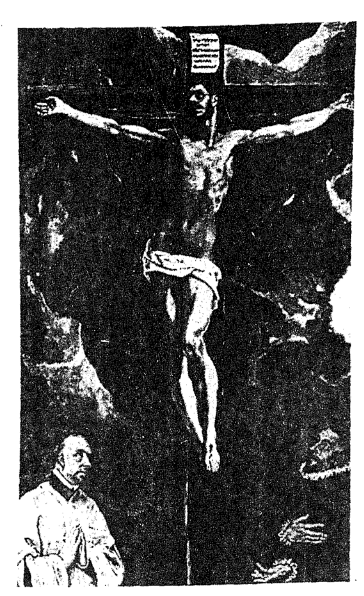
فى ذلك احياء العلم القديم ، علم الأغريق والرومان . وكان موطن هذه الحركة ايطاليا ، ومن رجالها بترارك ودانتى وبوكاشيو ولورنسو دى ميدتشى .

وساد القرن السادس عشر شعور غامر باعادة اكتشاف الحياة . . أو كما يسمى عصر إحياء العلوم وقد جاء هذا مواكبا لاختراع آلة الطباعة التى كان لها أبلغ الأثر فى نشر المعارف ، وعمت تلك الروح الوثابة التى أتسمت بها جمهوريات المدن الإيطالية . . ويمكن القول بأن العلم الحديث بدأ فى الجامعات الايطالية فى القرن السادس وانتعش فيها إلى منتصف القرن السابع عشر ، ثم انتقل مركز النشاط إلى باريس ولندن . وكان القرنان السابع عشر والثامن عشر عصر الجمعيات العلمية لا سيما الجمعية الملكية بلندن ١٦٦٠ م وأكاديمية العلوم فى باريس ١٦٦٦ م وكان الأب الروحى لهاتين الهيئتين العلامة فرنسيس بيكون الكاتب الفيلسوف الانجليزى المولود فى لندن ١٥٦١ م ومات ١٦٢٦ م . وهو صاحب القول بضرورة جمع الحقائق أولا ثم التجريب قبل التفلسف ووضع النظريات . وفى ايطاليا تأسست أكاديمية دلينس عام ١٦١٢ م وقد أثرت هذه الجمعيات والأكاديميات روح البحث غير أنه يمكن القول دون مبالغة أن العلم ظل فى أيدى الهواة حتى القرن التاسع عشر ، ثم عاد الاعتماد فى البحث العلمى على الجامعات .

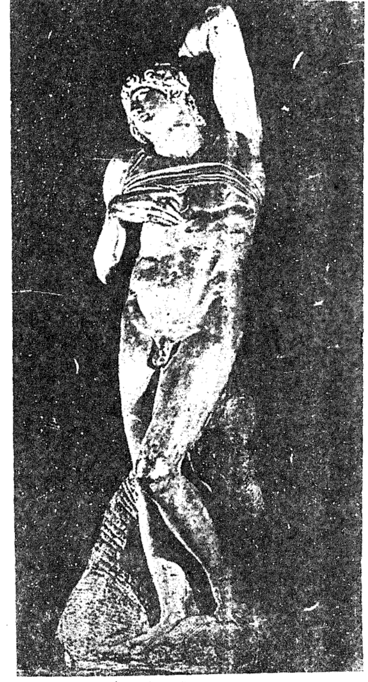
* * *

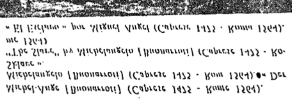
الحركة الفنية فى أوروبا :

واكبت حركة إحياء العلوم فى عصر النهضة حركة مماثلة بالنسبة للفنون التشكيلية والتصوير والموسيقى منذ القرن الخامس عشر . وكانت البداية فى الفنون التشكيلية والتصوير مستوحاة من القصص الدينى . . وقد ساعد على ذلك أن الكاثوليكية لا تعارض بشدة صنع التماثيل أو الرسم كما أن تشوق الأوروبيين للجذور الأغريقية والرومانية التى كان لها باع كبير ساعد على ذلك فى الفنون التشكيلية وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك مقاومة للفنون والرسم ، وخاصة بالنسبة للجسد العارى للإنسان فقد ثار جدل مع ميخائيل أنجلو



*Greco [Domenicos Théotocopoulos, dit le] (Creta 1541 - Toledo 1614): « Le Christ en croix adoré par les donateurs ».
Greco [Domenicos Théotocopoulos, genannt G.] (Creta 1541 - Toledo 1614): « Christus am Kreuz, von Stiftern angebetel ».
"Christ Crucified Adored by the Givers" by Greco [called Domenicos Théotocopoulos] (Crete 1541 - Toledo 1614).
« El Cristo en la cruz adorado por les donadores » por Domenicos Théotocopoulos, llamado el Greco (Creta 1541 - Toledo 1614).*





Michel-Ange (Buonarroti) (Caprese 1475 - Rome 1564).
Michelangelo (Buonarroti) (Caprese 1475 - Rom 1564).« Der Sklave »
„The Slave" by Michelangelo (Buonarroti) (Caprese 1475 - Rome 1564)
« El Esclavo » por Miguel Angel (Caprese 1475 - Roma 1564).

ورفائيل اللذين كانت دعواهما أن جسد الانسان ـ كما خلقه الله ـ فيه نبل وجمال فلم لا يتناوله الفن والابداع ؟ . وانتصر الفنانون على رجال الكنيسة المعترضين وتم رسم سقف كنيسة سان بيتر بالصور المتعلقة بالقصص الدينى ، وانطلق الرسم والنحت متحررا من القيود مضيفا لقيمة التحرر بعدا جديدا ، كما ساهمت الفنون فى وصل التراث القديم بعصر النهضة ذلك التراث الذى كان الأوروبيون يتشوقون إليه . وما إن جاء القرن التاسع عشر حتى كانت أوروبا كلها تزخر بالتماثيل ذات القيمة الجمالية فى الميادين والحدائق العامة . . ولا حاجة للتدليل على أن ذلك قد أسهم ايجابيا فى نهضة الشعوب إلى جانب ارتقاء الفنون الأخرى .



طلبة الجمعية الملكية بلندن ١٦٦٠ م

الموسيقى :

كانت الفترة ابتداء من ١٦٠٠ م - ١٧٥٠ م مرحلة متكاملة ظهرت فيها الموسيقى كفن مستقل بذاته الأمر الذى لم يكن معروفا من قبل ، فقد ظلت الموسيقى فنا مساعدا يشترك دائما مع الحركة والكلمة أو كلاهما معا . . ولم يصبح ذلك واقعا الا عندما صمتت الأصوات واستمرت الآلات الموسيقية وحدها فى أداء مفهوم له معنى . هذه الظاهرة البسيطة هى التى نقلت الموسيقى من فن مساعد إلى فن مستقل بذاته قادر على أن يولّد مبادئه الخاصة به . فمن المعروف أن أغراض الموسيقى فى المجتمع هى :

١ - أغراض دينية وشعائرية .

٢ - حربية كالسير المنتظم (المارش والنشيد) .

٣ - درامية كالغناء الدرامى والالقاء الملحمى .

٤ - شعبية كالغناء والرقص لخدمة الترفيه والعمل .

٥ - فنية وهى التى تضفى مغزى جديدا ووظيفة جديدة : على صور كاملة متقنة لأى من الجوانب الأربعة السابق ذكرها .

وقد بدأت بذور التطور فى الموسيقى الغربية مع حركة الإصلاح الدينى البروتستنتى حيث اعتمد اللوثريون على الكورال فى الغناء الدينى ، واستمر التطور مواكبا حركة التغير الاجتماعى للشعوب . حيث تحول محور المجتمع من الدولة للفرد وكذلك عندما أمكن نقد أى فكرة أو نظام سابق مع وجود رغبة متنامية عارمة فى الانطلاق من القيود . وكما كانت هذه الأفكار مثيرة لرجل السياسة ، كانت مثيرة للموسيقيين ، وكان لها تأثير فى ايجاد صيغ موسيقية جديدة . وقد ساعد على ذلك أن مكانة المؤلف الموسيقى باعتباره فردا فى المجتمع تغيرت بنفس السرعة التى تغيرت بها مكانة الأفراد . وفى نهاية القرن الثامن عشر كانت حفلات الأوبرا أمرا مألوفا فى القارة الأوروبية . وقد تجاوبت المجتمعات الأوروبية مع التطور الموسيقى كفن مستقل بذاته يثير

الإحساس بالجمال والذوق الرفيع ، مما جعل الموسيقى لغة مشتركة للقارة الأوربية تكوّن قاعدة تفاهم مشترك مثلها مثل اللغة اللاتينية بين المثقفين . وقد تبوأ الفنان الموسيقى مركزا مرموقا ، وظهر فى أوروبا آلاف من الموسيقيين مؤلفين ، وعازفين ، ولمعت أسماء عديدة مثل موتسارت ، وباخ ، وبتهوفن . . (وبالطبع هذا الرقى لم يحدث فجأة . . فموتسارت مات معدما . . .) المهم أن الموسيقى بتتالى إبداعاتها عبرّت عن موضوعات لم يسبق التعبير عنها من أحاسيس الغناء الحر لعامة الناس ، لا كما كانت سابقا داخل قصور الأمراء والحكام . . كما أن الموضوعات خرجت عن دائرة العلاقات الشخصية الضيقة فى الحب والوصل والهجر . ولا نبالغ إذ نقول أن الموسيقا أصبحت فيها بعد القرن الثامن عشر ضرورة للانسان المتحضر وليست ترفا .

الرحلات إلى الشرق :

كان رجال الدين المسيحى فى أوروبا اللاتينية هم أسبق أهل الغرب إلى زيارة الشرق للحج إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين ، وتسجيل مشاهداتهم . . وكانت كتب الرحلات مقتضبة تلتصق بالكتاب المقدس أشد ما يكون الالتصاق ، فكانوا يتحدثون عن البحر الأحمر باعتباره البحر الذى عبره النبى موسى ، ويتحدثون عن الأنهار الأربعة التى تنبع من الجنة . . . الخ . ثم جاءت بواكير عصر النهضة فتغيرت النظرة إلى القصص المحدود أولا ثم التدقيق فيها بعد فى وصف الأشياء والبلاد والعادات والتقاليد . حدث ذلك فى القرن السادس عشر فقد قام ليونهارد رادنولف برحلة إلى الشام فى الفترة ١٥٧٣ - ١٥٧٦ م فوصف فنادق الأجانب ووصف الحياة العامة والخاصة للترك ، ووصف حكومة الباشا فى حلب وحياة الترف المتصلة ببلاطهم وحريمهم وكيف أن السلطان يرث الباشا فى أملاكه ، ثم يصف معاملة المسلمين للأجانب وكيف أن المسيحيين الأجانب كانوا يمنعون من دخول المدن الإسلامية على ظهور الجياد وكان عليهم أن يترجلوا عند أبوابها .

نشطت الرحلات إلى الشرق فى القرن الثامن عشر نشاطا كبيرا وخاصة فى النصف الثانى بعد زوال هيبة الامبراطورية العثمانية . . ومثال عن ذلك رحلة كارستيف نيبور إلى البلاد العربية ١٧٦١ ـ ١٧٦٧ م التى خرجت ضمن البعثة الدينماركية . وكانت مهمة البعثة كما جاءت فى كتاب عنها للباحث ثوركيلوهاتزن عام ١٩٥٦ م قال :

« أن نيبور تلقى فى ديسمبر ١٧٦٠ م مكتوبا يشتمل على ٤٣ بنداً من خلالها حدد خطط سير البعثة ومهامها » . ومما جاء فى هذا البيان المطول كمهمة أولى تعلم اللغة العربية والجوب فى قلب البلاد وسواحلها وأن على كل عضو أن يسجل يومياته ، وأن يرسل من سجل اليوميات نسخة إلى الوطن كلما سنحت الفرصة لذلك ، كذلك شراء المخطوطات . وينبغى على أعضاء البعثة أن يجيبوا على الأسئلة التى وضعها الأستاذ ميشايلتن ، وعلى الأعضاء رصد خطوط الطول والعرض لتكون أساسا لرسم خريطة للمنطقة التى يجوبون فيها ، وأن يتبينوا الاختلاف بين موسم الجفاف وموسم الأمطار ، وأن يتنبهوا لآثار العصور البائدة ، وعدد السكان ، ودرجة خصوبة الأرض . وعلى البعثة بصفة خاصة ملاحظة المد والجزر بالبحر الأحمر ، والعلاقة بين المواليد والوفيات ، وعدد النساء فى الريف والمدن ، والعلاقات بين الجنسين وعلى الدكتور (فلان) أن يبحث فى الأمراض بكل منطقة ، وعلى الأستاذ (فلان) ملاحظة عادات وتقاليد الناس ، وعلى الأستاذ (فلان) أن يجمع عينات حيوانية ونباتية كذلك على الرسام أن يعاون أعضاء البعثة عند طلبهم ذلك (انتهى) .

ونلاحظ شدة اهتمام الغربيين بالشرق اهتماما يخدم التطلع للسيطرة عليه .

* * *

خط سير رحلة كارستيف نيبور :

بدأ كارستيف خط الرحلة بالوصول إلى القسطنطينية ثم التوجه إلى الإسكندرية ثم القاهرة ثم سيناء واجتاز البحر الأحمر إلى اليمن وفد مكثت البعثة فى مصر من عام ١٧٦١ ـ ١٧٦٢ م . وكتاب الرحلة فى حد ذاته مثير ومشوق وبه وصف لمعاناة البعثة فى المراكب الشراعية ولكن الروح الوثابة والجدية فى كل ما أنجزه أعضاء البعثة من عمل كان ظاهرا . ومن خلال كتاب الرحلة يتضح جليا أن أهدافها لم تكن لخدمة العلم والمعرفة فقط وسوف يشير إلى ذلك أنه عندما يصف المرور فى مضيق الدردنيل يقول :

« وليس للقلاع المشرفة على الدردنيل من الأهمية ما قد يظن الإنسان فليست القلعة القائمة على الشاطىء الآسيوى إلا بناء مربعا صغيرا تحيطه الأسوار الضخمة والأبراج . والمدافع التى يشاهدها الإنسان هنا مدافع كبيرة جدا ولكنها موضوعة على الأرض مباشرة أو على عوارض . وقد أتيح لى فحص بعضها عن كثب فتبينت أنها لم تستخدم من وقت طويل . والقناة عند الدردنيل ضيقة بحيث تصل طلقات المدافع من أحد شواطئها للآخر ، ومجراها متعرج لا يمكن للإنسان أن يأمل فى اجتيازه فى ليلة كاملة حتى إذا كانت الرياح مواتية . هذا إلى جانب أن الأتراك يستطيعون وضع بطاريات مدفعية بتكاليف قليلة عند منعطفات القناة ، ولهذا فإنه ليس من السهل على أسطول معاد أن ينفذ من القناة أو يهجم على القسطنطينية من ناحية الماء حتى مع فرض أنه سيجد الدعم من قوات برية تقضى على القلاع والبطاريات المقامة على القناة المذكورة وتؤمن رجوعه فإن البحر بين الدردنيل والقسطنطينية ملىء بالمناطق الضحلة التى تعرض الأسطول للخطر . أما إذا أرادت الدول المسيحية أن تنال من العاصمة التركية عن طريق البحر فأصوب السبل إلى ذلك هو منع الواردات عن طريق البحر الأسود وكذلك عن طريق الأرخبيل . . فإذا ما مُنعت الواردات فإن الغلاء سيستشرى فى العاصمة وحينئذ لن تكون ثورة الرعية بعيدة الاحتمال كما هو معروف » (انتهى النص) .

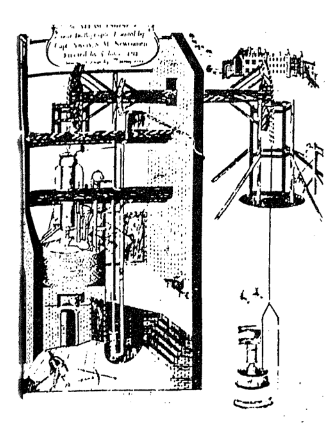
الثورة الفرنسية ١٧٨٩ م :

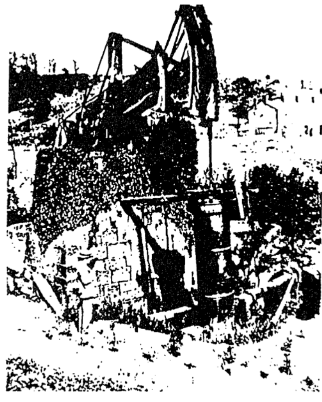
تعد الثورة الفرنسية من أهم الأحداث، لا فى فرنسا وحدها ، وإنما فى تاريخ أوروبا بأسرها . بل والعالم أجمع . ففى فرنسا كانت الملكية واسعة النفوذ ، مطلقة السلطان إلى حد كبير باعتبار أنها تستمد السلطة من الله . ومن ثم ، كان للملك مطلق التصرف فى المال ، وفى الحرية ، وفى الحياة ، بالإضافة إلى ما كان من تبذير الأموال فى بناء الدور والقصور ، وبقاء نظام الامتيازات الذى جعل الأشراف يستأثرون بأرفع مناصب الدولة ، ويعفون من أعباء الضرائب إلا القليل ، فضلا عن حقوق أخرى تختلف عن النظام الاقطاعى . بينما كان لا يزال للكنيسة أرض تبلغ خمس أرض فرنسا تقريبا ، إلى جانب أموال الزكاة التى كانت تفرض على العامة وحدهم : كان كل ذلك يصرف لا فى معاونة الفقراء وانما كان ينفقه رجال الكنيسة على أنفسهم ليعيشوا فى ترف دونه ترف كبار الأشراف . وفى القرن الثامن عشر ظهرت فى فرنسا طائفة من الكتاب قوضت كتاباتهم دعائم النظام : فمونتسكيو كان يرى أن النظام الانجليزى هو أرقى الأنظمة لأنه يضمن الحرية السياسية لكل مواطن حيث تركزت سلطة الدولة فى ثلاث هيئات مستقلة : تشريعية ، وتنفيذية ، وقضائية (نظرية فصل السلطات) . أما فولتير فقد اتجهت كتاباته إلى الهدم حيث حمل على مفاسد الحكم المطلق ، ووضع أساسا لمجتمع حديث يهدف إلى المساواة والحرية ، وكان لكتابه « العقد الاجتماعى » تأثير بالغ فى نفوس الفرنسيين حتى لقب بـ « انجيل الثورة » . ثم جان جاك روسو وأفكاره عن الحرية كما هاجم الإقتصاديان كيسناى وجورناى النظام القائم - كانت نتيجة ذلك كله اعلان حقوق الانسان على أساس تعاليم روسو ، والغاء نظام الامتيازات ، ووضع السلطة التشريعية فى يد مجلس نيابى واحد ، إلى غير ذلك من الاصلاحات .. ثم انتهى الأمر باعدام الملك وأسرته وإعلان الجمهورية .

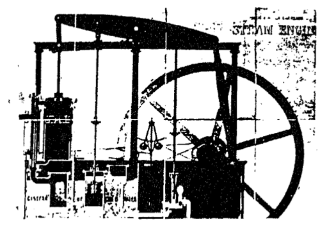
القسم الرابع
الثورة الصناعية فى أوروبا

لا خلاف فى أن بداية الثورة الصناعية فى نهاية القرن الثامن عشر بدأت فى بريطانيا ومن ثم فإن درجات تصنيع الأمم الأوروبية كانت تُقوم بالنسبة لدرجة التصنيع فى بريطانيا باعتبارها رائدة التصنيع فى القارة الأوروبية . وقد مهد لهذه الثورة تطوير أفران صهر الحديد باستخدام الفحم الحجرى الموجود بكثرة فى أوروبا وخاصة بريطانيا . ففى العصور الوسطى وحتى القرن الثامن عشر كانت أفران صهر الحديد تشعل بواسطة إمرار تيار من الهواء على الفحم النباتى سهل الاشتعال ، وكانت هذه الأفران تسمى الـ Plast Furneces وبتطوير هذه الأفران باستخدام الفحم الحجرى قفزت بنوعية الصلب قفزة كبيرة بدءا من صناعة الفأس إلى تدريع السفن وصناعة المدافع . وفى القرن التاسع عشر دخلت الحضارة الأوروبية عصر المطرقة البخارية وسفن الحرب البخارية .

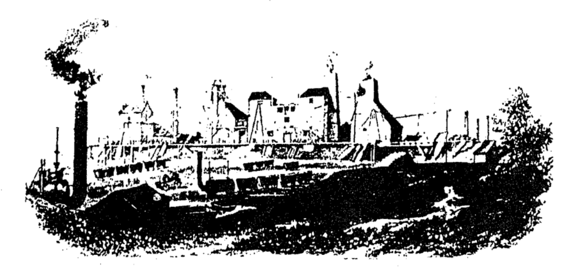
ولقد امتدت حركة التصنيع عبر القنال الإنجليزى حتى نهر الدانوب ، ولكن درجة النمو الصناعى كانت تختلف من بلد لآخر . . وقد أخذت حركة التصنيع فى أوروبا شكل الظاهرة العامة حسب درجة تهيئة الاقتصاد القومى لحركة التصنيع وكانت الدول الأسبق بعد انجلترا هى فرنسا وألمانيا وشمال إيطاليا . وقد أخذت حركة التصنيع وقتا أطول بالنسبة لروسيا مثلا . ولبيان نمو حركة التصنيع فى إنجلترا نجد أن إنتاج انجلترا من الفحم خلال القرن السادس عشر (٢٠٠,٠٠٠) طن ارتفع ليكون ٢,٥ مليون طن فى أوائل القرن الثامن عشر ، ثم قفز إلى عشرة ملايين طن فى عام ١٨٨٠ م ثم قفز إلى ٢٧٠ مليون طن فى ١٩١٠ م . أما بالنسبة للبخار الذى اكتشف قوته العلامة إسحاق نيوتن عام ١٦٨٠ م فكان أول إستخدام تطبيقى له بواسطة جيمس وات الانجليزى عام ١٧٦٩ م عند استعماله للطلمبات البخارية ذات المكبس . وأول قاطرة بخارية بدائية اخترعت أيضا فى انجلترا عام ١٧٧٤ م .







The power of steam The success and limitations of Thomas Newcomen's stationary steam engine (c. 1710) encouraged the search for an engine that would provide rotary power: over half a century later Watt provided this in the 1780s. ABOVE LEFT A mechanical drawing of an early Newcomen engine at Dudley Castle Colliery, near Birmingham. LEFT Watt's double-acting condensing steam engine. ABOVE A Victorian photograph of Watt's first engine, 1774. As industrial archaeology has developed in the last twenty-five years, many early industrial sites have been carefully photographed and, in some cases, preserved. BELOW Steam at the mine: Hetton Colliery, Durham, a lithograph c. 1820.



التطبيقات البخارية



وات

أما الصورة النهائية لها فظهرت عام ١٨٠٤ م . أما فى فرنسا فقد ظهرت أول عربة تعمل بالبخار وكان لها ثلاث عجلات عام ١٧٦٩م .

ومن الاختراعات التطبيقية العظيمة المخرطة التى ظهرت عام ١٧٩٣ م ، كذلك اختراع آلة حلج القطن عام ١٧٩٣ فى أمريكا ، وآلة غزل النسيج فى عام ١٧٦٤ فى انجلترا .

وخلاصة القول أن الحركة العلمية نشطت نشاطا عظيما ابتداء من القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن الثامن عشر ممهدة للثورة الصناعية فى نهايات القرن الثامن عشر . هذا القرن الذى أفرز أيضا فى نهايته أكبر ثورة شعبية أثرت فى تاريخ البشرية وهى الثورة الفرنسية .

وقد بدأ التنافس بشكل حاد بين الدول الأوروبية وخاصة بين انجلترا وفرنسا فى كافة الميادين سواء كان ذلك فى العالم القديم أو الجديد أو فيما وراء البحار . وفى النصف الثانى من القرن الثامن عشر نجحت الثورة الأمريكية فى إضافة مجتمع غربى جديد فى قارة جديدة ذات موارد ضخمة .

* * *

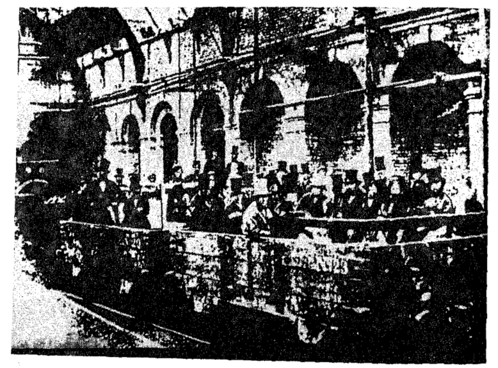
التغيرات الاجتماعية فى أوروبا نتيجة لحركة التصنيع :

ظهرت طبقات عريضة من الطبقات الوسطى واضمحل دور النبلاء إلا من شارك فى التحولات الاجتماعية والاقتصادية ، وظهر مجتمع أصحاب البنوك ومديرى المصانع ، وأصحاب الشركات . وازدادت أهمية المهندسين والحرفيين ذوى المهارات ، وعمت ظاهرة البحث عن المبدعين وتبنى المشروعات والبحوث التطبيقية لتطوير التكنولوجيا ، والاغداق عليهم . وغنى عن البيان أن ذلك كله ما كان يحدث لولا انتعاش الاقتصاد وتهيئته لحركة التصنيع وحاجتها للمزيد من الموارد ، مما جعل الدول الأوربية تتجه للبحث عن موارد جديدة فى العالم سواء عن طريق الاحتكار أو الحصول على امتيازات فى دول العالم القديم الشرقية . أما فى روسيا ذات المجتمع الزراعى فقد حاول بطرس الأكبر الذى آمن بالنهضة الصناعية ، وعمل على تحديث بلاده فى هذا القرن ، مما مكن روسيا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر من التوسع فى وسط آسيا على حساب الامبراطورية العثمانية ، كما فكرت روسيا أيضا فى أن يكون لها مستعمرات فى أفريقيا ، ولكنها فشلت فى ذلك ، وفكرت فى الوصول إلى الهند ولكنها لم تفلح . ومن أسباب ذلك أن النمو الصناعى فى روسيا ظل بطيئا بالنسبة لأوروبا لعدم تهيئة الاقتصاد القومى لذلك .

تبلور النمط الغربى فى الحياة :

بنهاية القرن الثامن عشر انتقلت أوروبا من عصر النهضة إلى عصر التقدم التكنولوجى والإنتاج الكبير ، وتبلور النمط الغربى فى الحياة ، وقد كان





The iron horse The railway revolutionized first the distribution of consumer goods, then passenger travel. RIGHT A share certificate for the Stockton and Darlington Company (1821), who provided the first service offering public carriage of goods by locomotive. Fare-paying passengers were not carried until 1833. CENTRE The 'gateway to the continent': Victoria Station, opened in 1860, had departures to Moscow and the Riviera as well as commuter towns. BELOW The London underground: Gladstone, the Chancellor of the Exchequer, at Edgware Road during the first trip on the Metropolitan line, 1863.

ذلك على حساب شعوب المستعمرات واستغلال الشعوب الأخرى بالامتيازات الأجنبية . أحس الأوربيون بالتفوق وعمت الطبقات الوسطى والعليا روح التحضر والاستمتاع بالحياة فنشأت عادات وتقاليد جديدة تجمع بين تقاليد النبلاء والفرسان قديما ، وقيم ما بعد الثورة الفرنسية من تقديس للحرية وتكافؤ الفرص واحترام الآخرين مع تقاليد جديدة خاصة برجال الاقتصاد والتجارة والبنوك . . ممن يشكلون البرجوازيين الجدد . أما بين الشباب فقد ازداد الاهتمام بالفنون عموما والموسيقى خصوصا ، والرقصات المبتكرة ، والرياضة . . وكان ذلك بطاقة المرور للمجتمعات الراقية . وفى الحفلات الخاصة ترسخت قواعد « البروتوكول والإتيكيت » الأوربى . . وازداد الاهتمام بأزياء الرجال والنساء ، والتفاخر بالمقتنيات القيمة الجميلة ، كما زادت فرص الاختلاط بين الجنسين زيادة كبيرة عن طريق التزاور ، ورحلات الصيد ، والتنزه ، والرياضة بعد ما كان قاصرا على أيام الآحاد فى الكنيسة وأدت كثرة الاحتكاك إلى انفراج كبير فى مساحة ثقافة الفرد الأوربى . فأخبار الحروب والمغامرات والاستكشافات الجديدة وأخبار المستعمرات وغرائب القصص عن الشرق وسحره ، وقصص البطولات . . كل ذلك فجر طاقات فى حياة أوروبا الفكرية والثقافية . وكان مردود ذلك كثرة عدد المفكرين والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وأجيالا قرأت لمن مهدوا لهذه الطفرة الثقافية والفكرية أمثال منسكيو وفولتير وموليير وجان جاك روسو .

أما فى مجال العلوم فقد كان فى كل يوم يجد جديد يؤكد انتصار الإنسان الأوروبى على مشكلات الحياة . ويعد القرن الثامن عشر مولد المجتمع الاستهلاكى . وقد ظهر شعار اكسب وانفق Getting and Spending كذلك شعار امتلك وتمتع Having and Enjoying ، ونتج عن ذلك انتشار فكرة ترقية الأذواق وفكرة « الموضة » Fashion فمثلا كان فى شارع اكسفورد بلندن عام ١٨٠٠ م ١٥٣ محلا استهلاكيا[١] .

وكان الإقطاع قد اختفى من أوروبا وظهرت صراعات الطبقة العمالية

---

(١) كتاب تاريخ إنجلترا الإجتماعى

مع الرأسماليين إلا أنه كان صراعا فيه شيء من التكافؤ . فالنقابات تدافع عن العمال وتكتسب حقوقا لهم ، والأحزاب ذات البرامج تحاول مساعدة الشعب . وانتشر التعليم فى أوروبا ، ولم يعد هناك طاعون يفتك بربع السكان فى هجمة واحدة ولم يعد هناك صراع جدلى بين الكنيسة والعلمانيين ، ولم يعد هناك أمثال الراهب سافونا رولا الذى كان يحرم الرقص والموسيقى ويجلد النساء فى الميادين العامة فى فلورنسا . لم يعد هناك سحر وشعوذة . فقد انتهى عصر الخرافة .

اتسعت المدن وخاصة فى العصر الفيكتورى ، ورصفت الطرق وانتشرت الحدائق العامة التى تصدح فيها الموسيقى لعامة الناس وأقيم العديد من التماثيل والنصب التذكارية دليلا على الثراء ، وحب الحياة والجمال . أما النظافة فقد عمت الشارع ، والحديقة ، والعمارة ، بعد ما كانت معظم بيوت الأوربيين بلا حمامات حتى القرن السابع عشر . . وقد اشتهرت فرنسا بالعطور للتغلب على الروائح الجسدية الكريهة لقلة الحمامات أنذاك :

تبلور النمط الغربى كما أشرنا فى نهاية القرن الثامن عشر . . فنمط المعيشة يكاد يتشابه ، كذلك النظرة للحياة مع بعض الاختلافات فى الدرجة حسب الثراء وما تفرضه الفروق القومية ، والاعتزاز الوطنى مثل اعتزاز الانجليز بوحدات القياس ، الأوزان ، وطريقة المرور (عجلة القيادة فى اليمين) . ومثل عدم إنشاء انجلترا لدار أوبرا حتى الآن . . وإن كانت قاعة البرت هول الموسيقية ، وهى تعادل الأوبرا تعد بديلا لها وهكذا نجد أنماطا أوربية متعددة أهمها تأثيرا النمط الفرنسى والإنجليزى والألمانى والإيطالى وأخيرا الأمريكى . . لكنها كلها أوروبية غربية ذوات جذور لاتينية تمر بعصر النهضة وتمتد إلى الامبراطورية الرومانية المقدسة . إلى ذلك الحلم الذى يوشك أن يتحقق عندما تتوحد أوروبا عام ١٩٩٢ . رغم بعض الشكوك حول إكتمال ذلك .

الاقتصاد فى عصر الثورة الصناعية :

سوف نأخذ إنجلترا مثلا لتمثيل الحالة الاقتصادية فى عصر الثورة الصناعية ، وسوف نتناول بعض الأرقام التى تمثل النمو الاقتصادى المتزايد المأخوذة من كتاب التاريخ الاجتماعى لإنجلترا طبعة ١٩٨٣ م .

زاد إنتاج الحديد الخام أربع مرات خلال ١٧٤٠ ـ ١٧٨٨ م ، ثم أربع مرات أخرى حتى ١٨٠٨ م ثم بلغ ثلاثين ضعفا فى القرن التاسع عشر .

زادت واردات القطن الخام خمس مرات ١٨٧٠ ـ ١٨٠٠ م وثلاثين ضعفا فى القرن التاسع عشر .

زادت أعمال الشحن من ٣,٦٠٠,٠٠٠ طن فى ١٨٥٠ م إلى ٦,٦٠٠,٦٠٠ طن ١٨٨٠ م . وفى عام ١٩١٣ م كان انتاج انجلترا من الصلب ٨ مليون طن وبلغت ذروة الثقة الانجليزية فى الاقتصاد الصناعى الذى حقق فى غضون ثلاثين عاما فقط ١٨٥١ م ـ ١٨٨١ م زيادة كبيرة فى الدخل القومى من ٥٢٣ مليون جنيه استرلينى إلى ١٥٥١ مليون جنيه . وقد نافست الولايات المتحدة وألمانيا فى أوائل القرن العشرين بريطانيا العظمى فى إنتاج الصلب ، وأنتج كلاهما كميات أكبر إلا أن صناعة الغزل والنسيج فى بريطانيا العظمى كانت تمثل أكبر استثمارات فى العالم . كذلك بالنسبة للفحم حيث بلغ المصدر منه فى نهاية القرن التاسع عشر نحو ٦٠ مليون طن من إجمالى ٢٧٠ مليون طن . وقد انتهى العصر الفكتورى وبريطانيا إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس فعلا وتمثل قمة الاستعمار والنفوذ العالمى ، وصاحبة أكبر واردات وصادرات فى العالم رغم منافسة فرنسا ، وباقى دول القارة الأوروبية التى برز منها فى أواخر القرن التاسع عشر ألمانيا كقوة صناعية تبحث عن دور سياسى عالمى مما جعل الصدام حتميا ، وقد حدث فعلا ذلك فى أوائل القرن العشرين فى الحرب العالمية الأولى .

وكانت فرنسا وانجلترا فى صراع شديد من أجل النفوذ . وحدثت حروب أوربية طويلة مثل حرب الوراثة النمسوية ١٧٤٠ م ، وحروب نابليون

التي استمرت حتى أوائل القرن التاسع عشر ، وحرب البوير فى نهاية القرن التاسع عشر .

والحقيقة أن بريطانيا العظمى كانت سيدة هذا القرن ، وخاصة فى عصرها الفكتورى .

وقد نشطت الحركات الكشفية نشاطا كبيرا فرغم أن استراليا قد اكتشفها فى القرن السادس عشر ١٥٦٧ م الأسبانى الفارو دى ماندانا إلا أن الأسطول البريطانى بقيادة آرثر فليب هبط إليها مستعمرا عام ١٧٨٨ م واكتشف الذهب بها ١٨٥٠ م ، وكانت قيمة المستخرج منه فى عام ١٨٥٢ م ما قيمته ١٧ مليون جنيه استرلينى وحدثت أكبر هجرة أوربية إليها من الانجليز فيها بين ١٧٨٨ ـ ١٨٥٢ م . وخلال مائة عام تالية أصبح الانجليز يشكلون ٩٠٪ من السكان .

* * *

القسم الخامس

الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر

ظاهرة الاستعمار :

ظاهرة سياسية قديمة تتمثل فى عدوان شعب على جيرانه الضعفاء . . وقد مارست ذلك الحضارات القديمة مثل حضارة المصريين القدماء والآشوريين والإغريق . إلا أن أول شعب أو أمة أضفت على العدوان صورة الاستعمار المنظم هم الرومان . فهم أول شعب رسم لنفسه سياسة عدوانية للاستغلال المنظم الطويل الأمد للبلاد التى يضعون أيديهم عليها . ولم تُعرف مثل هذه السياسة عن المسلمين فى البلاد التى فتحوها باستثناء الأتراك الذين مارسوا شيئاً من ذلك بالنسبة لبلاد شرق أوروبا النصرانية . حيث كانوا يقدمون الجزية على الإسلام كنوع من الاستغلال المادى ، هذا ما كان فى عصور ما قبل النهضة الأوروبية حيث ظهر الاستعمار الحديث نتيجة للغنى ، والنمو العلمى ، والتفوق الفنى لشعوب أوروبا اللاتينية بعد نهضتها وثورتها الصناعية فى أواخر القرن الثامن عشر وظهور الحاجة للأسواق والموارد . . فكان العدوان على الأمم الضعيفة أينما وجدت وفقاً لفكرة أجدادهم الرومان الوثنيين وهى الاستغلال المنظم الطويل الأمد لنهب خيرات الأمم وتحقيق أكبر قدر من الرفاهية لشعوبهم ، وقد بدأ البرتغاليون الاستعمار الحديث مستغلين العاطفة الدينية لنشر المسيحية كستار لعمليات النهب ، فأنشأوا مراكز عسكرية على السواحل لتنفيذ ذلك . . ثم جاء بعدهم الهولنديون والفرنسيون والانجليز ، وأخذوا فى غزو البلاد التى لا تملك سلاحاً والمتأخرة علمياً وثقافياً . وفى نهاية القرن التاسع عشر صار الاستعمار جزءاً ثابتاً من سياسات الدول الأوروبية القوية عسكرياً ، وقد ساعد على انتشار هذه الظاهرة الاستعمارية الحكام المحليون فى البلاد الإسلامية بسبب خلافاتهم وتنازعهم

مع بعضهم البعض واستعانتهم أحياناً بالأوروبيين الذين يسارعون بإرسال جيوشهم لاحتلال البلاد . حدث هذا فى صقلية مع ملوك الطوائف بعد استعانتهم بملوك النورمان ، وحدث هذا فى تونس لدولة الحفصيين وبنى مرين كما وقع حديثاً فى الهند ، وإيران ، وبلاد ما وراء النهر بل للدولة العثمانية نفسها ، كما أغرى الأوربيون الحكام المسلمين بالاستدانة من الغرب بلا حساب .

وقد اشتعل تنافس طويل بين الدول الاستعمارية على المستعمرات وانتهت قيادة الحركة الاستعمارية فى أفريقيا وآسيا لأيدى الإنجليز والفرنسيين فى نهاية القرن التاسع عشر مع اشتراك طفيف من جانب البرتغال وهولندا وبلجيكا وأسبانيا وإيطاليا .

ومنذ أوائل القرن التاسع عشر أصبح من الجلى الواضح انقسام العالم إلى قسمين ، القسم الأول أوروبى أمريكى متعلم ، غنى ، قوى ، يسود البحار والأرضين وقسم فقير منقسم على نفسه . وهذا الاختلاف الكبير فى المستوى هو الذى ساعد على اتساع ظاهرة الاستعمار ، وكان من المنتظر أن بلاد الإسلام تستطيع مقاومة موجة الاستعمار بفضل ميراثها الثقافى الضخم ، ولكن هذا الميراث كان لدى الشعوب وليس عند السلطة الحاكمة ، ولهذا ظلت الشعوب إلى حد كبير محتفظة بدياناتها ولغاتها وحضاراتها ، بينما انهارت الحكومات وتهاوت بسرعة عندما اصطدمت بالقوى الغربية المسلحة بالعلم ، والمنظمة سياسياً وعسكرياً **والمؤيدة فى الغالب من شعوبها (وهذا هو المهم والمفتقد)** .

* * *

ظروف الاستعمار الأوروبى فى القرن التاسع عشر :

بعد ظهور الثورة الصناعية فى أوروبا ، وتحول الاقتصاد القومى لحركات التصنيع وظهور الحاجة لمزيد من الموارد تأصلت لدى جميع الدول الأوروبية

فكرة استغلال الشرق ، واستعمار أفريقيا ، والقضاء على النفوذ التجارى والسياسى للعالم الإسلامى ، فتمكنت انجلترا من السيطرة على معظم شبه القارة الهندية فى القرن التاسع عشر وكذلك هولندا على أندونيسيا ، وروسيا على ولايات آسيا الوسطى الإسلامية ، واتخذت معظم دول أوروبا مواطن أقدام على سواحل أفريقيا الشرقية والغربية ، وقد سادت فى القرن التاسع عشر نظريتان استعماريتان فى السياسة الدولية :

الأولى : وهى النظرية البيولوجية السياسية : بمعنى حق الدول الكبرى فى التهام الدول الصغرى ، وأن الشعوب الصغيرة يجب أن تذوب داخل كيانات أكبر ، وقد لقيت هذه النظرية تأييداً واسعاً كمبرر لضراوة الزحف الاستعمارى فى مناطق كثيرة من العالم .

الثانية : وهى إباحة تملك الأقاليم التى تسكنها شعوب متخلفة غير مسيحية أو قبائل منعزلة عن ركب الحياة العصرية خارج القارة الأوروبية ، واعتبار هذه الأقاليم خالية يمكن تملكها لأول دولة تطؤها ، سواء بقواتها المسلحة أو ببعض من أفرادها بحيث يتمكنون من رفع علم دولتهم فوق جزء من هذه الأقاليم .

وقد وضع مؤتمر برلين ١٨٨٤ م عدة شروط لهذا الاستيلاء حتى يُحدث جميع آثاره القانونية فى المجال الدولى ، ومن الطريف أن روسيا حاولت أن يكون لها مستعمرة أفريقية فى أواخر القرن التاسع عشر فى القرن الأفريقى تحت شعار حماية المسيحية فى الحبشة ، فأبحرت من ميناء أودسا الروسى على البحر الأسود ، باخرة عليها ثلة من العسكريين وبعض الرجال والنساء والأطفال ورجال الدين ، بقيادة راهب قوقازى ، ووسط شعور فياض من الحماس الدينى أبحرت الباخرة متجهة إلى البحر الأحمر عبر قناة السويس ، ولما بلغت الباخرة مصوع رفضت السلطات الايطالية السماح لها بالرسو بها فاستمرت مبحرة جنوباً حتى رست فى ميناء مهجور تابع لمستعمرة أوبوك الفرنسية ، وقام الكاهن القوقازى وكان اسمه أتشينوف برفع العلم الروسى ، ولكن ما لبث

السلطات الفرنسية أن أعادته مع أفراده العسكريين بعد اشتباك صغير قتل فيه أربعة من المغامرين الروس وسمح للرهبان فقط بالدخول إلى الحبشة ، وأنزل العلم الروسى من فوق الميناء المهجور .

ثم تزايدت موجات التوسع والاستعمار والبحث عن الأسواق والموارد لتلبية الاستثمارات الخاصة بحركات التصنيع الأوروبية ، وقد شجع على هذا تلاشى هيبة القوى الإسلامية فى أواخر القرن الثامن عشر ، وعلى وجه التحديد عام ١٧٧٨ م بعد هزيمة الدولة العثمانية الثقيلة أمام روسيا التى باتت جيوشها على مشارف العاصمة العثمانية ، ولولا تخوف الإنجليز من سقوط الدولة العثمانية فجأة على أيدى الروس لاجتاحت الجيوش الروسية العاصمة اسطنبول ولكن انجلترا هددت روسيا ثم عقدت الهدنة .

* * *

التوسعات الأوروبية فى أفريقيا :

ظلت القوى الاستعمارية فترة طويلة نحو قرنين من الزمان ترابط على سواحل أفريقيا دون الدخول لقلب القارة حيث توجد الغابات الكثيفة والصحارى الشاسعة والأنهار الحبيسة والأمراض القاتلة وخاصة الملارياقبل اكتشاف مصلها فى نهايات القرن التاسع عشر ذلك القرن الذى شهد حركة استعمارية كاسحة من معظم الدول الأوروبية وخاصة انجلترا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا . فمثلاً نجد أن دولة روديسيا سميت باسم سيسل رودس ، أحد رواد الاستعمار البريطانى وقد أسس شركة على غرار شركة الهند الشرقية أسماها شركة أفريقيا الجنوبية ١٨٩٠ م ، وساعدته حكومة بريطانيا على غزو الأقاليم الغنية فى حوض نهر زمبيزى ، كما سحقت بريطانيا العظمى شعب البوير ، وهم فلاحون هولنديون استعمروا الرأس الأفريقى منذ زمن طويل ثم رحلوا شمالاً وأسسوا جمهوريتين هما : الترنسفال والأورانج ، ولكن بريطانيا بعد اكتشاف الذهب فى الترنسفال والماس فى الأورانج ، قررت الاستيلاء عليها ، وقاوم البوير ، وتعاطفت معهما القارة الأوروبية خاصة ألمانيا ضد

انجلترا عام ١٩٠٢ م وهزموا ، وقد توسعت بريطانيا فى أفريقيا الاستوائية فضمت نيجيريا وساحل الذهب وسيراليون وأوغندة وكينيا والصومال ، واحتلت مصر عام ١٨٨٢ ، ثم السودان ، أما فرنسا فقد أسست فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مستعمرات واسعة فى أفريقيا وآسيا ، بعد أن فقدت الكثير من مستعمراتها فى القرن السابق ، وكان انطلاق فرنسا إلى ميادين الاستعمار خارج أوروبا إرضاء لكبريائها ووسيلة لتستعيد بها مكانتها كدولة كبرى ، وخاصة بعد هزيمتها عام ١٨٧٠ م فى الحرب السبعينية ، ومعنى ذلك أن قهر الشعوب الأقل تحضراً أصبح دليلاً على رفعة المكانة الدولية فى العرف الأوروبى ، وكان الاستعمار فى أفريقيا يتم فى كثير من مواطنه على حساب ممالك إسلامية فى غرب أفريقيا مثل النيجر ومايليه علاوة على ولايتى الجزائر فى عام ١٨٣٠ م وتونس ١٨٨١ م والمغرب فى أوائل القرن العشرين ، أما فى آسيا فقد استولت فرنسا على الهند الصينية وقد فعلت نفس الشىء بلجيكا وإيطاليا وألمانيا فى أفريقيا .

* * *

تسابق الدول الأوروبية على امتلاك الولايات العثمانية :

تسابقت روسيا ، والنمسا ، والمجر ، وفرنسا ، وبريطانيا ، وإيطاليا على اقتسام الولايات العثمانية فى أوروبا وآسيا وأفريقيا وكانت روسيا والنمسا من أسبق الدول فى انتهاج السياسة العدائية ضد الدولة العثمانية ، فروسيا تريد النفاذ إلى مياه الدردنيل الدافئة كما تريد التوسع البرى جنوبا وغربا ، أما النمسا فكانت نظرية الأمن الخارجى لها تقوم على منع أى دولة من تهديدها عن طريق نهر الدانوب من ناحية مصبه على البحر الأسود ؛ لذلك كانت تقاوم الدولة العثمانية لأن لها أملاكاً شمال نهر الدانوب (الأفلاق والبغدان) رومانيا وفى جنوب النهر بلغاريا والصرب والبوسنة ، وقد اتخذ الزحف الاستعمارى على أقاليم الدولة العثمانية طابعا دينياً بحجة حماية الأقليات المسيحية من رعايا

الدولة العثمانية زعيمة العالم الإسلامى ، وكانت النزعة الدينية فى روسيا أكبر من غيرها ، وتجلى ذلك عام ١٧٧٨ م عندما اقتربت الجيوش الروسية من مشارف العاصمة وشاهد الجنود مآذن العاصمة بالعين المجردة ، وكان الجنود الروس تحت تأثير الشحن المعنوى الدينى يتحرقون شوقاً لإعادة الصليب لكنيسة آيا صوفيا ، وعقدت الهدنة بعد قتال دام تسعة أشهر من الهزائم للدولة العثمانية المنهكة ، وقد ساعد على عقد الهدنة عدم رضاء بريطانيا عن اقتحام الروس للعاصمة الإسلامية اسطنبول ، وهددت روسيا بالحرب إن فعلت ذلك ، وقد حركت بريطانيا أسطولها الضخم إلى الدردنيل فى مظاهرة عسكرية ، وكانت روسيا قبل ذلك بقليل قد نجحت فى ضم معظم القوقاز وتركستان ، وفيما بين عامى ١٨٦٠ ـ ١٨٦٨ م استولت على تركستان الشرقية بما فيها من مدن إسلامية عريقة مثل طشقند وسمرقند وبخارى وفى عام ١٨٨٠ م التقت الإمبراطوريات الثلاث البريطانية والروسية والصينية فى هذه المناطق الإسلامية ، كما قسمت إيران إلى منطقتى نفوذ بريطانى روسى . وفى قلب العالم الإسلامى اقتسمت بريطانيا وفرنسا الساحل الأفريقى مصر والسودان ، واحتلت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١ م وفى مراكش كانت أجزاء صغيرة منها مثل طنجة تحت السيطرة الإنجليزية ومنطقة الريف تحت السيطرة الأسبانية ، أما الجزء الأكبر فكان من نصيب فرنسا عام ١٩١٢ م علاوة على امتلاكها الجزائر وتونس كما أشرنا من قبل .

الخليج العربى :

اختلف الأمر فى الخليج العربى حيث قامت بريطانيا بعقد اتفاقيات أبدية مع الحكام المحليين فى مسقط وأبو ظبى والبحرين ، لحماية المصالح البريطانية فى المنطقة بصورة مطلقة بل ومهينة بالنسبة للجانب العربى ، ونورد نموذجاً لإحدى هذه الاتفاقيات الساذجة المعقودة بين بريطانيا وإحدى إمارات الخليج العربى هذا نصها من كتاب الدولة العثمانية المفترى عليها الجزء الثانى ص ١٠٥٢) يقول الحاكم المحلى فيها :

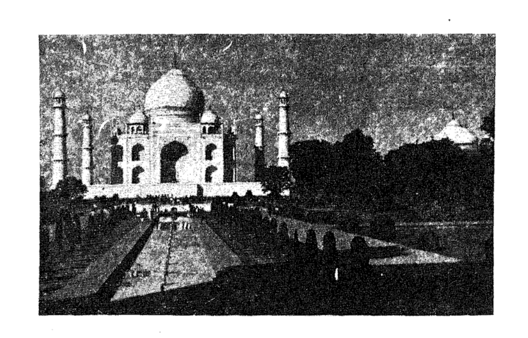
١ - إنى لا أدخل أبداً فى قرار ولا محاورة مع أىّ من الدول سوى الدولة البهية الانكليزية .

٢ - بغير رضاء الدولة البهية الانكليزية لا أقبل أن يسكن فى حوزة ملكى وكيل (سفير) من دولة غير الدولة البهية الانكليزية .

٣ - أبدا لا أسلم ولا أبيع ولا أرهن ولا أعطى للتصرف شيئاً من ممالكى لأحد إلا للدولة البهية الانكليزية .

كيفية وظروف المد الاستعمارى فى ايران والهند :

فى عجالة سريعة دخل الإسلام الهند وغرب الصين ، وتأسست فيها بعد ممالك وامبراطوريات إسلامية آخرها امبراطورية المغول . ففى القرن الرابع عشر ظهر تيمور لنك الشهير ١٣٣٦ - ١٤٠٥ م الذى احتل موسكو فى روسيا وفتح الهند وهزم العثمانيين وفتح الشام وبغداد وأسس الدولة التيمورية التى أستمرت حتى ١٤٤٩ م ، ومنذ ذلك الحين تأسست دولة سلاطين المغول ، ثم ظهر الصفويون فى إيران ١٤٩٢ - ١٧٣٥ م وهى دولة شيعية حاربت العثمانيين وناصبتها العداء بحكم اختلاف المذاهب الدينية ، حيث أن العثمانيين سنيون مما دفع أوروبا إلى الاستعانة أحيانا بهم ضد العثمانيين الذين كانوا يتقدمون فى قلب القارة الأوروبية وحدث أن أرسلت انجلترا سفيراً لمقابلة الشاه طهماسب خليفة الشاه اسماعيل مؤسس الدولة ، ولكنه طرد السفير عندما علم أنه نصرانى يريد أن يزيد الفتنه بين المسلمين . وكانت إيران حتى أوائل القرن السابع عشر قوة عسكرية يحسب لها حساب فى ميزان القوى ، وقد صادقت بريطانيا الشاه عباس فى مطلع القرن السابع عشر ، وساعدته فى طرد البرتغاليين من جزيرة هرمز ، وقد إنتهت الدولة الصفوية عام ١٧٣٥ م ، وقد سيطر الانجليز على إيران عن طريق التجارة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم اقتسمتها مع روسيا فى أوائل القرن العشرين ١٩٠٧ م قبل أن يتفقا على الانسحاب منها لتعود إيران دولة مستقلة ضعيفة مقسمة بين نفوذ بريطانيا وروسيا .



تاج محل بمدينة أجرا

كيفية الاستيلاء على الهند :

بلغت دولة الهند الإسلامية أقصى اتساع لها فى أواخر القرن السادس عشر فى عهد السلطان جلال الدين أكبر ، وكان البرتغاليون قد أنشئوا مراكز تجارية على السواحل ، وذاعت شهرة الهند بالغنى والثروات وتسامح سلاطينها ففى عام ١٦٠٨ م قدم وليم هنكز حاملا رسالة من ملك انجلترا جيمس الأول ، يرجو تيسير التجارة البريطانية ، ولكن البرتغاليين وشوا به ففشل فى مهمته ، وفى عام ١٦١٥ م أقبل توماس ود الانجليزى ونجح فى الحصول على اذن بفتح مركز تجارى لشركة الهند الشرقية البريطانية وكانت موانى التبادل التجارى بين الهنود الأوربيين شوارت وكالكتا وقد أذن السلاطين للانجليز بطرد البرتغاليين وفى المقابل حصلوا على امتيازات تجارية أكبر .

وفى عام ١٦٣٠ م طرد شاه جيهان آخر مركز للبرتغاليين فى هوجلى ، وبالمناسبة هذا السلطان شاه جيهان هو صاحب قصة الحب والوفاء لزوجته ممتاز محل ، التى بنى لها مدفنا أصبح أحد عجائب الدنيا السبع وهو تاج محل فى منتصف القرن السابع عشر ، وقد حاولت بعد زيارته مرتين معرفة المعمارى الذى صممة والذى نفذ هذا العمل الأبداعى فلم أوفق إلا لاسم المنفذ وهو المهندس أستاذ/ عيسى من إيران وذلك حسب ما جاء بالموسوعة الأمريكية كولير .

كان من العسير الحفاظ على هذه الدولة المغولية الواسعة فى الهند وقد تحارب أبناء السلاطين على العرش . مما أغرى الثوار من السيخ وطائفة المراتا بتشجيع من الانجليز بالخروج على طاعة السلاطين المسلمين . فقد كان هم الانجليز الأول هو أبعاد البرتغاليين والفرنسيين عنها ، فبدءوا بالتقرب لسلاطين دلهى للحصول على الامتيازات التجارية التى كسبوا منها أموالا طائلة ، ثم تحولت هذه المراكز إلى مستعمرات بأسلوب شراء الأراضى الواسعة ، فمثلا إشترت شركة الهند الشرقية ميناء بومباى ودخلوا فى صراع مع الفرنسيين (أثناء حرب الوراثة النمسوية ١٧٤٠ م) وفى بعض الاحيان تحالف

الفرنسيون مع امراء الهند ضد الانجليز ، مثل آخر سلطان لميسور وأسمه تيبو فقد أرغموه على التنازل عن نصف أراضيه لبريطانيا ، وبذلك أصبح الأنجليز قوة حقيقية سياسية وعسكرية واقتصادية ، وخلال القرن التاسع عشر أخذ الانجليز فى التوسع وحاولوا النفاذ لأفغانستان حيث أن قوة المسلمين فى الهند كانت دائما ترتكز على قواتهم فى بلاد الأفغان فمن هناك كانوا يأتون بخيرة جنودهم ، والجدير بالذكر أن دولة الهند الإسلامية ذات أصول أفغانية ، ولكن الانجليز هزموا هناك وعادوا إلى الهند ، وقد تنازلت شركة الهند الشرقية عن أراضيها الواسعة للحكومة الانجليزية ، وأصبحت أملاكها مستعمرة بريطانية فى الهند . وأستمر سلطان دلهى يمارس سلطاته الرمزية حتى عام ١٨٥٨ م حيث قامت ثورة عارمة ضد الانجليز بقيادة المسلمين الهنود نتيجة الاستغلال الجشع الذى من مظاهره القضاء على الصناعات المحلية وأدوات الحرفيين وخاصة النسيج حتى يضطر الناس إلى بيع الحاصلات الزراعية وخاصة القطن والقمح بأرخص الأسعار يرسل القطن لينسج فى بريطانيا ثم تباع الأقمشة فى الهند بأغلى الأسعار ، ويصبح المواطن الهندى فى كافة مجالات حياته معتمدا على الانجليز . وخلال هذه الثورة التى قمعت بكل عنف اقتادوا آخر سلاطين المغول وحاكموه محاكمة صورية ، وكان فى الثانية والثمانين من عمره ، وأدانوه بدعوى مساندته للثورة وقاموا بنفى السلطان بهادر شاه إلى رانجون وأعلنوا منذ ذلك الوقت أن الهند مستعمرة بريطانية يحكمها نائب الملك الذى يقيم فى مدينة جديدة إلى جانب دلهى القديمة وأسموها نيودلهى وهى العاصمة الحالية .

كان الانجليز يحرصون على إبعاد المسلمين من كل الوظائف ذات المسئولية ويضعون مكانهم الهندوس أو السيخ واتخذوا سياسة معادية للإسلام علنا ، حتى أن اللورد ألن بورد أعلن أن العنصر الإسلامى فى الهند هو عدو بريطانيا الأكبر وأن السياسة البريطانية فى الهند تقوم على تقريب العناصر الهندوسية للتغلب نهائيا على نفوذ المسلمين وقد وضع الانجليز أيديهم على الأراضى التى كانت بحوزة المسلمين وأعطوا جباة الضرائب من الهندوكيين

حتى تملك الأراضى التى يستطيعون انتزاعها من أيدى المسلمين ، وربما كان ذلك من أهم الأسباب التى دفعت المسلمين إلى التجمع فى بلاد السند والبنجاب وكشمير والبنغال للسعى لإقامة دولة خاصة بهم ، لأن العداوة التى غرسها وسعى اليها الانجليز فى قلوب الهندوس والسيخ ضد المسلمين كانت عميقة الأثر .

* * *

ويمكننا القول أنه منذ هبوط الاستعمار البرتغالى على الساحل الغربى للهند وفى منطقة الخليج العربى ، بدأت الحرب الاقتصادية بين البرتغال والشرق الإسلامى فقد خصص فاسكو ديجاما جزءا من أسطوله عند مدخل البحر الأحمر لمنع وصول السفن العربية والإسلامية وبصفة خاصة السفن المصرية إلى الهند ، وزاد الأمر سوءا باحتلال البرتغال جزيرة سومطره أمام القرن الافريقى . قد سبقت الاشارة إلى تحويل طرق التجارة إلى الشرق بالدوران حول رأس الرجاء الصالح وبذلك تم الغاء الطريقين السابقين وهما طريق الخليج العربى وطريق البحر الأحمر .

وقد أتخذ البرتغاليون جيوبا استعمارية على سواحل آسيا وأفريقيا ووضعوا فيها حاميات عسكرية لنهب خيرات البلاد ، وتبعهم فى ذلك الهولنديون حيث استعمروا جزر الهند الشرقية وهى (أندونيسيا الآن) ، ثم الفرنسيون والانجليز . وقد استحق القرن التاسع عشر اسم قرن الاستعمار الحديث فقد اقتسم الأوربيون العالم القديم بطريقة أو بأخرى ما بين مستعمرات صريحة أو انتداب أو مناطق نفوذ أو تحالفات غير متكافئة .

وقد اشترك بفاعلية فى عملية الاستعمار رجال الدين المسيحى الأوربيون وظهر مبشرون استعماريون لا هم لهم إلا محاربة الدين الإسلامى والإساءة اليه وأشهر هؤلاء الكادرينال الفرنسى لافيجيرى ، ودى برازا ، ومارشال ، ولابيير وكلهم فرنسيون كما اشتركت البابوية فى روما فأنشأت على الورق كاردناليات وأسقفيات فى أفريقيا ورصدت لذلك أموالا طائلة .

وإلى جانب هؤلاء ظهر فى أوروبا سياسيون اجتهدوا فى بناء أمجادهم الشخصية معتمدين على توسيع النفوذ الاستعمارى لبلادهم مثل رئيس وزراء بريطانيا بالمرستون ، وسيسل رودوس الذى سميت روديسيا على اسمه ، واللورد كرومر ، والجنرال الدن جورست الانجليزيين ، وجول تيرى ، والمارشال ليرق الفرنسيين .

والحقيقة أن الاستعمار جاء نتيجة طبيعية لمقدمات طبيعية بين عالم قوى وعالم ضعيف . ومن المعروف أن العوامل الحقيقية التى تصنع جزيئات التاريخ هى عوامل السياسة الداخلية ، الإدارة ، الاجتماع ، الاقتصاد ، الثقافة وهذه على وجه التحديد هى النواحى التى لم **يحسن المسلمون التصرف فيها خلال القرون الثلاثة الأخيرة حيث أخذت الطبقات الحاكمة الطريق على** الشعوب بشدة طمعها ونهبها الأموال وتحولت الدول الحاكمة إلى استبداديات يتحارب أفرادها على الملك أو الإماره لإنه كان الوسيلة الكبرى للنهب ، ولو أدى ذلك إلى الاستعانة بالدول الاستعمارية لتثبيته على عرشه **والتضحية بمستقبل شعبه فى ظلام الاستعمار والتبعية .**

* * *

مناطق النفوذ الاستعمارى فى أفريقيا وآسيا فى نهاية القرن التاسع عشر :

(أ) منطقة النفوذ الفرنسى وتشمل الشمال الأفريقى كله عدا ليبيا ، وكذا افريقيا الغربية المدارية والاستوائية والوسطى ، باستثناء ما أخذته انجلترا وغيرها من البلاد الأوروبية ، علاوة على جزيرة مدغشقر ، وجيبوتى فى شرق القارة الافريقية أما فى آسيا فكان لها شبه جزيرة الهند الصينية كلها .

(ب) منطقة النفوذ البريطانية وتشمل أجزاء من افريقيا الوسطى والشرقية ، ونامبيا ، وسيراليون ، وساحل الذهب ، ونيجيريا ، وجنوب افريقيا ومصر والسودان ، أما فى آسيا

فكانت الهند كلها درة التاج البريطانى ومستعمرة هونج كونج فى الصين .

(جـ) منطقة النفوذ الألمانى وتشمل الكاميرون ، التوجو ، وجنوب غرب افريقيا وتنجانيقا ، وراوندا ، وبوروندى فى شرق القارة .

(د) منطقة النفوذ البجيكى وتشمل كل بلاد الكونغو (زائير) .

(هـ) منطقة النفوذ الأسبانى ، وتشمل منطقة الريف المغربية ، والصحراء الأسبانية ، وغينيا الأسبانية ، علاوة على الفلبين فى آسيا حتى عام ١٨٩٨ ، ثم انتقلت للولايات المتحدة الأمريكية .

(و) منطقة النفوذ البرتغالى وتشمل أنجولا وموزمبيق والرأس الأخضر فى أفريقيا ، وجيوب صغيرة على سواحل الهند والهند الصينية فى آسيا .

(ز) منطقة النفوذ الايطالى ، وتشمل اريتريا والصومال وليبيا ، ثم الحبشة فيما بعد .

(ح) منطقة النفوذ الهولندى لم يكن لها مستعمرات فى افريقيا ولكن استعمرت أندونيسيا فى آسيا .

(ط) منطقة النفوذ الروسى ، وتشمل بلاد سيبريا حتى المحيط الهادى ، ثم بلاد آسيا الوسطى الإسلامية (التركستان وما حولها) .

أهم أحداث عصر النهضة :

جاءت الحروب الصليبية مخيبة لآمال الأوربيين مما زعزع مركز البابوية أمام العلمانيين وحركة الإنسانيين ، الأمر الذى مهد للإصلاح الدينى الذى انتهى بالتحرر من سيطرة الكنيسة إلى حد كبير بعد تعرضها للنقد الشديد . وقد واكب ذلك حركة كبيرة لأحياء العلوم وشملت النهضة كل جوانب الحياة الأوربية فى محاولة لاعادة اكتشاف الحياة ذاتها بعيدا عن الخرافة وتسلط رجال الدين .

اتخذ المثقفون اللغة اللاتينية لغة مشتركة بينهم وكان لاختراع آلة الطباعة أثر كبير فى نشر المعارف ، ويمكن القول بأن قطاعات عريضة من الشعوب بدأت فى المشاركة فى صناعة التاريخ كما ألهبت الانتصارات الحربية والكشوف الجغرافية خيال الأوربيين فى استثمارها سواء فى زيادة الموارد وتكوين امبراطوريات فيما وراء البحار أو فرض التجارة فى العالم القديم ، ونتيجة لذلك كله حدثت طفرة فى اعتزاز الأوروبى بنفسه ، مما غرس فيهم الشعور بالتفوق على شعوب الحضارات الأخرى بدءا من القرن السابع عشر .

حفل القرن السادس عشر بأحداث جسيمة فى ميدان الصراع بين الشرق والغرب بعد طرد المسلمين من أسبانيا ، فقد تم اكتشاف أمريكا واستراليا وطريق رأس الرجاء الصالح ، والكشوف الجغرافية الأخرى وظهرت البرتغال كقوة بحرية كبرى ، وتفجر الصراع على طرق التجارة وتصدت الامبراطورية العثمانية للاستعمار البرتغالى فوق مسرح عمليات كبير شمل الساحل الأفريقى والبحر الأحمر والخليج العربى وسواحل الهند ، وكان موقف العثمانيين فى شرق أوروبا يمثل ضغطا على أوروبا حتى قرب نهاية القرن السابع عشر ، وتمكنت بالتعاون مع الآخرين من القضاء على الاستعمار البرتغالى فى الشرق الا أن الأحوال الداخلية فى الولايات الإسلامية بدأت تسوء فى القرن السابع عشر ، فى الوقت الذى بدأت أحوال أوروبا فى الأزدهار علوما ، وفنونا فى عصر الرينسانس .

وقد لعبت الفنون من موسيقى ، ونحت ، وتصوير ، دورا هاما فى ابداعات الأوروبيين فى هذه الفترة ، وتأكيد قيم التحرر من القيود ، ووصل التراث القديم بحاضرهم الآخذ فى الازدهار فى نفس الوقت كانت الفنون الشرقية من موسيقى ، وفنون تشكيلية ، ورغم ازدهارها فى بعض الاقطار الإسلامية ذات أثر شعبى محدود فقد نمت رأسيا فى احضان الطبقات الحاكمة من ناحية التكنيك والحرفية ، ولكنها لم تنم أفقيا بالنسبة للموضوعات التى عبرت عنها ، كما أن ضغط رجال الدين (الذين كان لهم نفوذ كبير فى الامبراطورية العثمانية) على الفنانين كان كبيرا ، وظل الفنان يمثل مرتبه متدنيه فى المجتمع الإسلامى ولا يزال بيننا وحتى اليوم من يعتقد بتحريم الموسيقى مثل الراهب المتزمت سافونا رولا فى العصور الوسطى وإنها ملهاة عن ذكر الله ، وأنها مزمار الشيطان ، ومن يستمع للموسيقى يصب فى اذنيه رصاص مصهور يوم القيامة ، كذلك كانت مقاومة رجال الدين للنحت والتصوير أشد . وقد تغيرت هذه النظرة فى مصر فى أوائل القرن العشرين على يد الامام محمد عبده مفتى الديار المصرية الذى اباح النحت والرسم والموسيقى بل وشجع الفنون عموما ، وقد افرغ الفنان المسلم القديم طاقاته فى الزخارف الهندسية والنباتية حتى استقل هذا الفن بنفسه ، وأضافت الحضارة الإسلامية فنا جديدا لم يكن معروفا على هذا النحو ، أما الحركة العلمية فقد أصابها الجمود بعد سقوط الدولة المملوكية فى مصر تلك الدولة التى حافظت على التراث العلمى الإسلامى باللغة العربية ، وكان آخر العمالقة ابن خلدون فى القرن الخامس عشر . وقد حاول الاتراك ترجمة التراث العربى الإسلامى للغة التركية التى فرضوها على ولاياتهم . ومن المعروف انه عندما تتكلم السلطة لغة غير لغة العلم التى كانت العربية حتى القرن الرابع عشر ، ينكمش العلم ويتجمد ، ومعنى ذلك انه فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون المثقفون والعلماء يتفقون على جعل اللغة اللاتينية لغة مشتركة بينهم ، كان العكس يحدث فى الشرق ، مما حرم الأمة من تراثها المكتوب بالعربية التى كان يمكن أن تظل لغة العلم بين شعوب الهند الإسلامية المتكلمين بالأردية ، وشعوب ايران وافغانستان المتكلمين بالفارسية ، والشعب التركى المتكلم بالتركية .

وقد أثر أهمال اللغة العربية كلغة مشتركة بين المسلمين تأثيرا سلبيا على الحركة العلمية ، وكان سبباً فى تنامى الجمود فى القرون التالية . أما بالنسبة لأوروبا فقد تتالت الكشوف العلمية والجغرافية والرحلات إلى الشرق ، ولمعت أسماء العلماء مثل بويل ، وباسكال ، ونيوتن ، وغيرهم كثير فى أواخر القرن السابع عشر ، وانتشر التعليم - وأصبح تحصيل المعرفة أو حتى التظاهر بذلك قيمة اجتماعية ، كذلك بالنسبة لتحسين أداء الآلات لزيادة جودة المنتجات ، حتى وان كانت بسيطة (قبل الثورة الصناعية) . وانتشر هواة العلم من كافة الطوائف حتى أن رجال الدين والكهنوت ، اشتغلوا بالعلوم التطبيقية والطبيعية ، مثل باسكال ، وغيره فوصلت روح النهضة لقطاعات كبيرة من المواطنين ، كل يريد أن يسهم بنصيب فى اضافة شىء وان لم يسهم يشجع ويهتم بالمبدعين واخبارهم ، حماسة للعلم ، وحماسة للفنون ، للآداب ولكل الأفكار الجديدة ، وكما سبق أن أشرنا ، كان الأوربيون يعيدون اكتشاف الحياة ذاتها .

وخلال القرن السادس عشر والسابع عشر نجحت الحكومات الملكية فى أوروبا فى مواجهة سلطة النبلاء والأشراف ، ومع اتساع نطاق الادارة والأشراف ، وأقام الملوك الأسبان مجالس شورى وتبعتهم أوروبا فى ذلك . فى الوقت الذى اعتمدت فيه الدولة العثمانية على نظام الطاعة الواجبة من الأرقاء الذى ثبت فشله فى النهاية .

وخلاصة القول أن النفوذ الأوروبى أصبح واضحا قرب نهاية القرن الثامن عشر ، وغدا الغرب يمثل قوة متطورة صاعدة فى كافة المجالات والشرق يمثل قوة جامدة متعثرة ، أعناق البشر فيها ملوية للوراء تحت سيطرة رجال الدين المساندين لحكام مستبدين ، . وجاءت الثورة الصناعية فى نهاية القرن الثامن عشر فى بريطانيا مواكبة للثورة الفرنسية ذات الأثر البالغ سياسيا واجتماعيا ، وأثمرت هى والثورة الأمريكية مبادىء حقوق الانسان وازدهرت أوروبا الغربية اقتصاديا ، وزحفت حركة التصنيع شرقا فى أوروبا حتى وصل شىء منها إلى روسيا .

وبرزت حاجة النهضة الأوروبية للاستعمار لزيادة الموارد ، وفرض المنتجات ، وما يستلزم ذلك من قهر شعوب أخرى ، واستغلالها . وتنافس فى ذلك الأوروبيون ، وقد استحق القرن التاسع عشر اسم قرن الاستعمار الحديث ، حيث اقتسم الأوروبيون العالم بطريقة أو بأخرى ، ما بين مستعمرات صريحة أو انتداب أو تحالفات غير متكافئة .

* * *

الفصل الثالث
مقاومة العالم الاسلامى للعدوان الغربى

القسم الأول : الدولة العثمانية فى القرن السابع عشر

القسم الثانى : ظروف النهضة المصرية فى عهد محمد على باشا

القسم الثالث : الحركات السياسية الدينية

القسم الرابع : محاولات السلطان عبد الحميد الاصلاحية والحرب العالمية الأولى

القسم الخامس : ما بعد الحرب العالمية الثانية

القسم الأول

الدولة العثمانية فى القرن السابع عشر

لم يكن العالم الاسلامى متخلفا فى العلوم والآداب فى القرن الرابع عشر - والخامس عشر وجزء من القرن السادس عشر ، فقد كانت الكتب العربية تدرس فى جامعات أوروبا طوال هذه القرون وظل بعضها يدرس حتى منتصف القرن الثامن عشر ، وخاصة كتب الطب والجغرافيا والتاريخ والاجتماع ولا ينبغى أن ننسى أن الشريف الأدريسى هو صاحب أول خريطة للعالم وليس بطليموس وقد ثبت ذلك مؤخرا ، وقد عاش الشريف الأدريسى فى القرن الرابع عشر . . كذلك العلامة ابن خلدون الذى ظل معترفا به كأعظم مؤرخ وعالم اجتماع حتى القرن التاسع عشر كما سبق أن أشرنا فى موضع آخر . كذلك لم يكن العالم الاسلامى متخلفا فى فنون العمارة ويدل على ذلك أن تاج محل بالهند وهو أحد عجائب الدنيا السبع من نواتج القرن السابع عشر هذا بالاضافة إلى فنون العمارة الأخرى الواضحة فى المساجد والقصور فى العالم الاسلامى . . إلا أن التخلف والجمود بدأ فى القرون الثلاثة الأخيرة حيث كانت الطبقات الحاكمة فى معظم العالم الاسلامى منفصلة عن شعوبها وكانت تعتمد على الولاء الدينى والاستعانة برجال الدين فى قهر الشعوب واستغلالها بدرجات مختلفة . . علاوة على ارهاق الأمة فى الحروب حتى القرن السادس عشر بالنسبة لمصر والشام والساحل الأفريقى وجزر البحر المتوسط .

كان الحكم الأرستقراطى العسكرى (عهد المماليك) مترفعا عن الشعوب المحكومة ولا يؤمن بأى دور لها سوى دفع الضرائب والدعاء للسلطان بالنصر ثم جاء الحكم التركى ذو النزعة العسكرية والدينية أيضا ، فأضاف أثقالا أخرى على الشعوب المحكومة . . وكان هذا بيت القصيد فى بداية الجمود الفكرى والثقافى ، خاصة بعد اهمال الدولة العثمانية للغة العربية

وقصر استخدامها على الأمور الدينية فى ولاياتها مما أثر على الحركات العلمية ولا يعنى ذلك انكار الاسهامات التركية فى تنظيم الدولة فقد قام السلطان العثمانى سليمان القانونى بوضع أنظمة دقيقة للادارة نهضت بالامبراطورية فى القرن السادس عشر نهضة كبيرة غير أن نظام الارقاء الذى أبتدعه الأتراك كان نظاما فاشلا وخلف تقاليد عسكرية ذات أثر سلبى سنتعرض له فيما بعد . . . وفى الوقت الذى بدأت فيه أوروبا الخروج من ظلمات الاقطاع ومن الارهاب الدينى متمثلاً فى سلطة الكنيسة منذ القرن الخامس عشر كان النظام التركى يتأصل فيه حكم الصفوة المدعومة بسلطة رجال الدين والموجه لحرمان الشعوب من أى نوع من الحرية . وقد بدأ الملوك الأوربيون بعد الاصلاح الدينى ادراك أهمية وقيمة نشاط الأمم والشعوب فوقفوا تدريجيا مع شعوبهم ومنحوها لقاء إتاوات بعض الحريات فى التجارة ، وبناء السفن وجلب البضائع والثروات وشجعوهم على ركوب البحر وغزو البلاد والحصول على الأموال باعتبار أن ذلك كله يشكل مصالح مشتركة بين الملوك والشعوب ، وأدى هذا الى نمو الشركات التجارية ثم قيام الدول بحماية شركاتها كما رأينا فى شركة الهند الشرقية التى قامت بدورها فى غزو الهند وجعلها مستعمرة بريطانية ، فهذه الشركة هى التى أشترت ميناء بومباى ثم تنازلت عنه للحكومة لتكوين أول مستعمرة بريطانية فى الهند .

تنبه الأوربيون لأهمية عوامل السياسة الداخلية ، الاقتصاد ، الاجتماع ، الثقافة ، وهى على وجه التحديد النواحى التى أهملتها الامبراطورية العثمانية وولاياتها وظل شغلها الشاغل الى حد كبير فى الحكم هو تأكيد الولاء للسلطة وقهر الشعوب ذلك علاوة على أن رجال الدين فيما بعد القرن السادس عشر ـ ولأسباب عديدة أهمها ضعف استيعابهم لتراث الأمة الاسلامية العربى واستئناسهم بواسطة السلطة وقفوا جامدين عند اجتهاد وفقه عصور سابقة ، بل أقفلوا باب الاجتهاد فأسهم ذلك فيما أصاب الدول الاسلامية من الجمود والتخلف العام .

ورغم ذلك كله فإن رياح التغيير التى هبت على أوروبا فى عصر النهضة

وصل منها شيء ليس بالقليل للامبراطورية العثمانية وولاياتها . وقد تنبه بعض السلاطين والولاة بأن الاصلاح ومواكبة العصر ضرورة ولكن ذلك كان بعد فوات الأوان كما سيأتى شرحه فيما بعد .

كانت الدولة العثمانية على احتكاك دائم بالغرب وعلى دراية بالأخطار المحدقة بالعالم العربى والاسلامى وإن لم تكن على دراية كافية بأسباب بدء تدهورها فى القرن السابع عشر . بعد بلوغها أقصى اتساع لها فى نهاية القرن ثم بدأ الضعف يدب فى أوصالها تدريجيا الا أنه ليس من الانصاف المبالغة فى تقدير تخلف الدولة العثمانية فقد كانت مظاهر الانتعاش تظهر جلية عندما يتصدى للحكم سلطان واع يعاونه مجموعة من الصدور العظام اسما وفعلا (الصدر الأعظم هو كبير الوزراء) .

كانت اسطنبول فى أواخر القرن السادس عشر أكبر مدينة فى العالم وكان بها حديقة حيوانات كبيرة ، وحدائق ونافورات . وفى القرن الثامن عشر زار العديد من الأوروبيين العاصمة العثمانية للوقوف على أحوالها ومن ضمن هذه الزيارات زيارة قامت بها الليدى مارى . دى مونتاجى Mary worrlcy Mantagu أسطنبول عام ١٧٢٠ م ، ولاحظت كيف يقاوم العثمانيون انتشار مرض الجدرى بالتطعيم الذى لم يكن معروفا لدى الغرب فى هذا الوقت ، حيث كان يتم تطعيم الأصحاء عن طريق التشريط بجرعة مخففة من المرض فتكسب الأصحاء مناعة ضده وكانت هذه الزيارة هى مدخل تطور الوقاية بالتطعيم بعد تطويرها الى أوروبا فى نهاية القرن الثامن عشر على يد Edword Jenner 1744 - 1823[1] .

ومن مظاهر القوة قيام الدولة بتسليح نفسها وبناء سفنها الحربية حتى القرن الثامن عشر . ومن المعروف أن القوة العسكرية تعد ناتجا من نواتج

---

(١) H. G KEONIGSBER EARLY MODERN EUROPE P 163



حلقات الدراسة العثمانية

التقدم العلمى وقد زرت بنفسى المتحف البحرى والحربى بأسطنبول وقد لفت نظرى شيئان :

الأول : هو دقة الخرائط التركية وهى مكتوبة باللغة التركية بالحروف العربية .

الثانى : كتاب فى العلوم الرياضية مفتوح على رسومات ومعادلات القطع الزائد والقطع الناقص وهما على علاقة كبيرة بعلم المقذوفات والكتاب مترجم من العربية الى التركية فى القرن الرابع عشر .

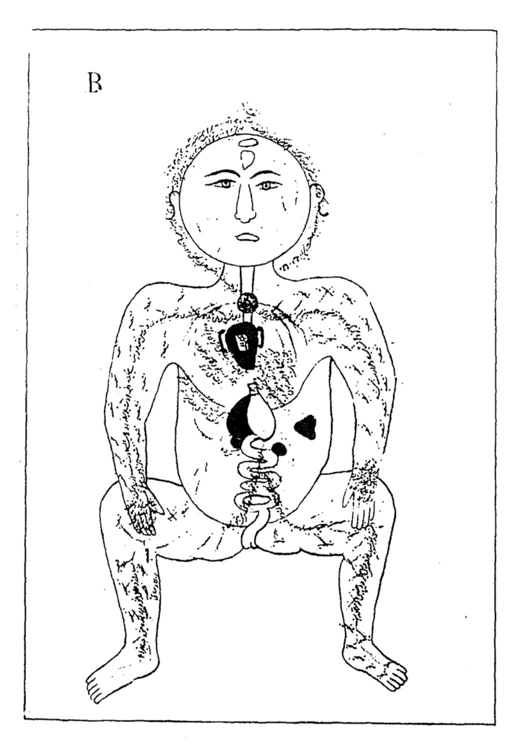
وقد شاهدت فى متحف آخر صناعة ساعات دقيقة وبوصلات من انتاج القرن التاسع عشر (وبالمناسبة أذكر القارىء بأن ساعات البندول اختراع مصرى لابن يونس المصرى وقد أشرنا لذلك من قبل) . . ويبدو أن العالم الاسلامى قد تعرض لحملة تشويه كبيرة من الغرب بعد ظهور عوامل الضعف فى الدول العثمانية وبدء الثورة الصناعية فى أوروبا بنهاية القرن الثامن عشر وربما يكون الغرض من هذه الحملة التى كانت تبالغ فى تصوير تخلف العالم الاسلامى ووصم كل ما هو اسلامى بالتخلف علاوة على الصفات المتدنية البعيدة عن التحضر هو تهيئة رأى عام لدى الشعوب الأوروبية لتقبل فكرة الانقضاض على العالم الاسلامى وتمزيقه باعتباره وثنيا غير متحضر ومن هنا جاء انكار كل اسهام محمود لهذه الأمة .

وفى اثناء زيارتى لإسطنبول الثانية عام ١٩٩١ تعرفت على مدير مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو . . الذى دعانى لزيارة المركز والتعرف على الجهود العظيمة البحثية فى التراث الحضارى الاسلامى . . وقد زودنى سيادته بمعلومات هامه فى هذا الصدد . وقد سعدت بايمانه بفكرة تعريف الجيل الحاضر بالتراث العلمى والثقافى الاسلامى فى العصور المتأخرة . إن هذا المركز البحثى وان كان تابعا لمنظمة المؤتمر الاسلامى ويمول من الحكومات الاسلامية إلا اننى أرى ضرورة اشتراك الشعوب والأفراد والجمعيات الغير حكومية فى الدعم المادى لهذا المركز

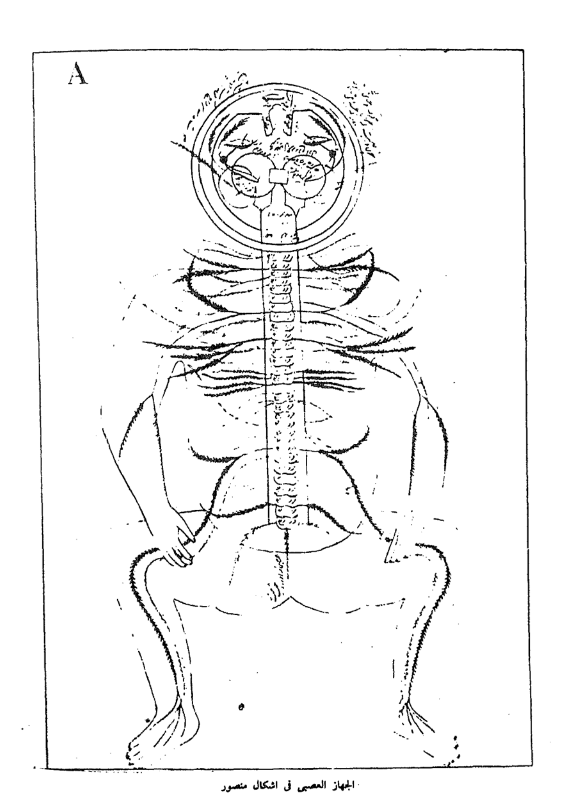
لخطورة دوره فى بعث صحوه حضاريه اسلامية ، هذا ما أؤمن به وأدعو إليه .
وقد وعدنى سيادته بأهدائى نسخة من كتاب كان تحت الاعداد أثناء زيارتى فى نقل المعلومات الحديثة والتكنولوجيا فى العالم الاسلامى ووصلنى هذا الكتاب أثناء مراجعتى النهائية لكتابى هذا. . . . أقدم لكم بعض الصور مما جاء به فى عجالة سريعه .

والدكتور أكمل الدين قضى جزءا من حياته بالقاهرة ومعروف فى الدوائر العلمية بمصر اكثر الله من أمثاله .

ولقد لفت نظرى أثناء تصفح الكتاب المذكور بعض الصور التى أنقلها اليكم وهى أشكال ابن منصور التشريحيه وهو كما جاء بالكتاب منصور بن محمد ابن أحمد المتوفى عام ١٣٨٦ م وهى تدل على رقى هذا العلم فى أواخر القرن الرابع عشر . كما لفت نظرى صورتان للهياكل العظيمة لعالم فارسى على مايبدو فى كتاب اسمه مرآه الابدان Miratul-Ebdan الاسم مكتوب فى أسفل الصوره .
وكل هذا يدل على أن العالم الاسلامى لم يكن متخلفا كما يدعى البعض .



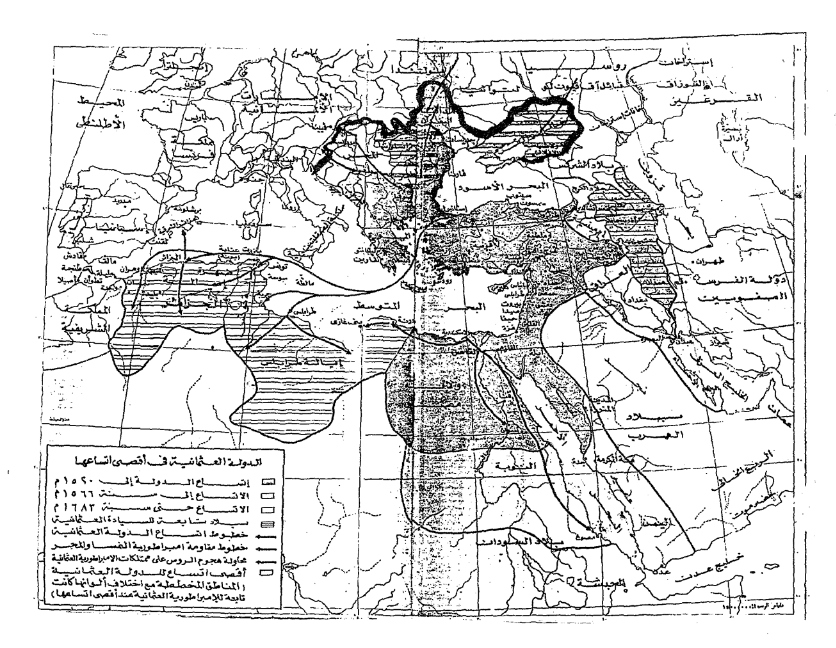
اشكال منصور التشريحية



الجهاز العصبى فى اشكال منصور



(Figs. 10A and B). [(A) Shānizāde's skeleton in Mir'ātu'l-Ebdān, pl. IV (Wellcome Institute Library, London). It is a perfect copy (B) of the Vesalian "Lamenting Skeleton" in the Encyclopédie (Paris, 1762 - 72), pl. II (Wellcome Institute Library, London).]


الدولة العثمانية في أقصى اتساعها
إتساع الدولة إلى ١٥٢٠م
الاتساع إلى سنة ١٥٦٦م
الاتساع حتى سنة ١٦٨٣م
بلاد تابعة للسيادة العثمانية
خطوط اتساع الدولة العثمانية
خطوط مقاومة امبراطورية النمسا والمجر
محاولة هجوم الروس على ممتلكات الامبراطورية العثمانية
أقصى اتساع للدولة العثمانية
(المناطق المخططة مع اختلاف ألوانها كانت
تابعة للإمبراطورية العثمانية عند أقصى اتساعها)
المحيط الأطلنطي
انجلترا
مملكة فرنسا
إسبانيا
روسيا
القرغيز
البحر الأسود
البحر المتوسط
دولة الفرس الصفويين
العراق
بغداد
بلاد العرب
النوبة
بلاد السودان
الحبشة
خليج عدن
إيالة طرابلس
الخليج العربي
اليمن
طرابلس
بيروت
غزة
تونس
الجزائر
وهران
طنجة
مالقا
سيواس
بلاد الشركس
طهران
شيراز
عدن
جدة
مكة المكرمة
مصوع
بحيرة أورال

تدهور الدولة العثمانية ومحاولات الإصلاح

فى أواخر القرن الثامن عشر وعلى ضوء الواقع الذى لايمكن إخفاءة ظهرت الحاجة لإصلاح الدولة . . وقد كانت هناك محاولات ولكنها لم تأت بالثمرة المرجوة نتيجة للضغط المستمر من أعداء الدولة علاوة على عمق الفساد وشدة التخلف عن العصر . . فقد أراد السلطان سليم الثالث مثلا أن يساير حركة النهضة الأوروبية التى أجتاحت العالم عقب الثورة الفرنسية ، ومن قبلها الثورة الأمريكية فقرر ادخال بعض الاصلاحات الجذرية التى من أهمها اصلاح نظام الجيش وانهاء نظام الانكشارية ولكنهم تآمروا عليه وتعاون معهم رجال الدين فأصدروا فتوى بخلعه وسجنه واختاروا بدلا منه السلطان مصطفى الرابع الذى أمر بقتل سليم ثم يلبثوا أن قتلوه هو نفسه بعد ذلك وجاء السلطان محمود الثانى عام ١٨٠٠ م الذى تمكن أخيرا من ابادة الانكشارية عام ١٨٢٦ م ونلاحظ قرب الفترة الزمنية لعمل مماثل قام به والى مصر محمد على باشا عندما تخلص من المماليك فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر وقد جاءت محاولات الاصلاح مبتورة وغير مستكملة ومع ذلك قامت عدة محاولات اصلاحية فى تركيا ذاتها وفى بعض الولايات العثمانية وكان أهم محاولة هى المحاولة المصرية بعد الحملة الفرنسية ومحاولة السلطان عبد الحميد فى تركيا ، كما سيأتى ذكره بعد .

كما قامت حركات دينية سياسية فى بعض الولايات أترك الحكم عليها للقارىء .

وقد دأبت الدول الأوروبية على عرقلة الحركات والمحاولات الاصلاحية بشتى الوسائل ، والتدخل فى شئون الدولة العثمانية بشتى الحجج مثل حماية الأقليات المسيحية والحصول على امتيازات خاصة مما أضر بالاقتصاد العثمانى والادارة العثمانية القاصرة أصلا .

وقد أسرف الأوروبيون فى اساءة استخدام هذه الامتيازات ودفع الدولة للاستدانة بفوائد عالية ، فإذا واكب ذلك اثارة العديد من الفتن بين الشعوب

العثمانية فلنا أن نتصور فاعلية معاول الهدم التى تعرضت لها الدولة وقد ذهب الأوروبيون فى ذلك شأوا بعيدا لدرجة تدبير المذابح الجماعية للأقليات سواء كانت مسيحية أو اسلامية .

كما ازداد النشاط التبشيرى سواء كان كاثوليكيا مدعوما من فرنسا وايطاليا أو بروتستانتيا مدعوما من انجلترا وأمريكا .

وبينما كان الغرب يستكمل بناءه الصناعى والتنموى كانت يده الأخرى تحمل السلاح لاجهاض أية محاولة اصلاحية فى العالم الاسلامى ، وشغله بالدفاع عن حياته ووجوده .

هذا إلى جانب الأسباب الداخلية المعوقة للاصلاح المتمثلة فى تحكم الارستقراطية العسكرية فى شعوب الأمة واحتقار الرعايا غير الأتراك . فقد كان الباشا التركى الحاكم لولاية ما هو المسئول عن الدفاع عنها عسكريا ، وحفظ النظام الداخلى ، والمسئول أيضا عن الادارة وجباية الضرائب وكانت يد الحكم ثقيلة بوجه عام وقد أشتهر الأتراك بالعسكرية العثمانية التى كان لها بعض الميزات فى القتال ضد الأعداء مما كان يجعلهم أحيانا يقاتلون بعناد يفوق بكثير الامكانات المادية المتاحة ، ولكن احتقار العسكريين للمدنيين فى كل الأقاليم وعلى مر العصور منذ المماليك الأيوبيين وربما حتى الآن ، جعل الأمل فى اقامة حكم مدنى حقا وصدقا حلما بعيدا .

لقد غيب هذا الواقع عن العقول مفهوم القوى الشاملة للدولة الحديثة الذى تشارك فيه الشعوب ، ويعتمد على القوة الاقتصادية ، والقوة الدبلوماسية ، والقوة المعنوية ، والقوة العسكرية . . واقتصر الفهم دائما على القوة العسكرية وعقيدة الجهاد ، الأمر الذى أورث الأمة الاسلامية حتى الآن حكومات عسكرية أو شبه عسكرية تتعالى على نظم الحكم المدنية ، فكانت الظواهر العامة المشتركة فى العالم الاسلامى فى القرن التاسع عشر هى :

١ ـ وجود حكم أرستقراطى عسكرى يمثل فى طبقات حاكمة مترفعة عن الشعوب ومنعزلة عنها .

٢ ـ مساندة رجال الدين للصفوة الحاكمة فى مقابل وضع اجتماعى أفضل .

٣ ـ تغلغل النفوذ الأجنبى عن طريق الامتيازات الأجنبية ، واغراق الدول الاسلامية فى الديون الغربية .

٤ ـ توقف الاجتهاد فى الفقه الاسلامى عند عصور سابقة ، والاهتمام بفقه الفروع أساسا فأصبحت الثقافة نقلية تقليدية بوجه عام .

٥ ـ زيادة مصروفات الطبقات الحاكمة مع قلة الموارد وانعكاس ذلك على الشعوب بأرهاقها بالضرايب .

٦ ـ عدم وجود لغة مشتركة عامة ، حتى بين المثقفين أنفسهم جعل كل أقليم يعيش ثقافة مختلفة .

٧ ـ التشكيك فى الأفكار الغربية باعتبارها ضد الدين الاسلامى .

٨ ـ غياب حرية الرأى وتعرض أصحابه للبطش والدسائس .

٩ ـ ظهور خلافات دينية اسلامية ، وطوائف جديدة مثل البهائية ، وفتن ضد الأقليات .

١٠ ـ انحطاط وضع المرأة على المستوى الشعبى باعتبارها آخر الحلقات فى سلسلة القهر الفوقى للرجل .

تأثير النهضة الأوروبية على العالم الاسلامى :

لقد أثرت أفكار النهضة وخاصة بعد الثورة الفرنسية فى معظم أنحاء العالم ، ولم تكن الدولة العثمانية فى معزل عن هذا ، فقد تأثر المفكر التركى نامق كمال (١٨٤٠ ـ ١٨٨٨) ومن قبله رفعت صادق باشا بهذه الروح وكان يرى أن تأخذ الدولة العثمانية زمام المبادرة فى حماية العالم الاسلامى بترقية ثقافته ، وكان يدعو إلى الحرية وحب الوطن ، وكان لا يرى أى تناقض بين الأخذ بمبادىء الثورة الفرنسية والشريعة الاسلامية الغراء مؤكدا أن محاسن الحضارة الأوروبية مقتبسة من الشريعة الاسلامية وكان سباقا للرد على

التعصب الأوروبى ضد الاسلام وهى هجمة ظهرت فى القرن التاسع عشر تزعمها الفرنسى أرنست رينان الذى تصدى له أيضا الشيخ الامام محمد عبده فى مصر .

ولم يكن نامق كمال أول مفكر عثمانى يتكلم عن الحكومة البرلمانية وعن حقوق الانسان ، ولكنه أول من ربط بينهما فقد سبقه رفعت باشا فى شرح حق المواطن فى الحرية ، كما فسر نامق كمال أن سيادة الشعب معناها أن تستمد الحكومة سلطانها منه ، وأن هذه السيادة تسمى فى الشريعة البيعة ، وكان يستقى آراءه السياسية فى الحكم من القرآن الكريم ومن آراء منتسكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥) . . وروسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) وقد ترجم كتاب روح الشرائع لمنتسكيو فى عام ١٨٦٣ م ، وشرح كيف تتواءم آراء هذا الفيلسوف الفرنسى مع روح الشريعة الاسلامية . وكان نامق كمال يكتب المقالات السياسية متابعا الأحداث العالمية مثل الثورة البولندية والحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥) ، وكان معارضا لسياسة السلطان عبد العزيز ، فهرب إلى أوروبا ١٨٦٧ م وأمضى بها ثلاث سنوات مترددا بين لندن وباريس وفيينا وبعد عزل السلطان عبد العزيز سمح له السلطان عبد الحميد بالعودة الى أسطنبول واستمر فى نشاطه الثقافى بكتابة المقالات السياسية والمسرحيات ، والقصص الأدبية ، والأشعار الوطنية ، ومصنفاته التاريخية ، وأبحاثه النقدية ، بل ورسائله الخاصة وكتب رواية أسمها « الوطن » التى أثارت مشاعر الاعجاب بين الجماهير وكان ذلك سببا فى اصدار السلطان عبد العزيز أمرا بسجنه فى قبرص حيث قضى أكثر من ثلاث سنوات وكان ظهور هذه الرواية حدثا سياسيا خطيرا وبعد عودته الى أسطنبول أيام السلطان عبد الحميد ساهم فى اعداد مواد الدستور العثمانى ، ثم اختلف مع السلطان عبد الحميد وقضى بقية حياته إما منفيا أو معتقلا إلى أن أدركه الموت عام ١٨٨٨ م .

وقد برز فى الولايات العثمانية الكثيرون فى القرن التاسع عشر من المتفهمين لروح العصر الثقافية مثل رفاعة الطهطاوى والشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغانى وعبد الرحمن الكواكبى وغيرهم من المفكرين الاصلاحيين .

القســم الثانى

ظروف النهضة المصرية فى عهد
محمد على باشا

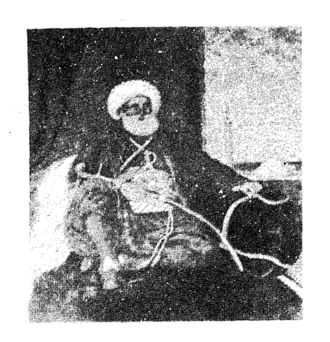
تأثير النهضة الأوروبية على مصر :

تلقت مصر الصدمة الحضارية فى نهاية القرن الثامن عشر على يد الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ م ـ ١٨٠١ م لمدة ثلاث سنوات شهدت مصر فيها الكثير من الأحداث المبهرة ، وتعرف صفوة الأمة من العلماء على حقائق كانت غائبة أو مغيبة عنهم شهدوا الصراع الفرنسى الانجليزى . . كدولة نصرانية قوية شهدوا نظما جديدة فى الادارة ، والحرب ، وبعض منجزات النهضة الأوروبية لأول مرة مثل آلة الطباعة وشهدوا ضعف الامبراطورية العثمانية بالنسبة لدولتى الغرب القويتين ، فرنسا وبريطانيا ، وشعر المصريون بطمع الأوروبيين فى بلادهم ، وثاروا ثورتين كبيرتين ضد الفرنسيين وتكونت بعد انتهاء الحملة زعامات دينية شعبية وجدت الثقة فى نفسها وفى قدرتها على أن يكون لها دور سياسى فى حكم البلاد .

ـ ظروف وكيفية النهضة المصرية فى عهد محمد على باشا ١٨٠٥ ـ ١٨٥٠ :

ـ محمد على مؤسس مصر الحديثة .

اصطلح المؤرخون على اعتبار عصر محمد على باشا هو بدء تاريخ مصر الحديث ولا يختلف اثنان على ذكاء وموهبة هذا الرجل ، وعظيم إنجازاته لمصر والعالم الاسلامى فقد تولى الحكم فى ظروف ما بعد الحملة الفرنسية التى سببت صدمة حضارية للمصريين والمماليك حين التقوا بقوم مختلفين فى سلوكهم وآدابهم وعلومهم كما دخلت مصر فجأة بؤرة الصراع الدولى بين فرنسا وانجلترا تحت سمع وبصر الامبراطورية العثمانية العجوز التى تعد مصر ولاية من ولاياتها الغنية وجزءاً من دار الاسلام وقد قاوم المصريون الحملة



« محمد علي باشا » أنشأ الجيش المصرى الحديث عام ١٨٢٣

"Mohammed Ali Pasha" who established the modern Egyptian Army in 1823 A.D.

Mohamed Ali Pacha qui fonda l'armée égyptienne moderne (environ 1823 A.D.).

الفرنسية فى ثورتين كبيرتين مما أرهف الحس السياسى لدى الشعب المصرى الذى حاول أن يكون له دور فى طريقة حكمه ، وذلك بقيادة زعمائها وعلمائها مثل السيد عمر مكرم الزعيم الدينى والشعبى فى هذه الفترة كما أن علماء مصر هم الذين اختاروا محمد على باشا ووضعوا السلطة فى يده فقبلها على استحياء وزهد فيها (ولم يكن ذلك حقيقياً فيما أعتقد ، وإنما كان دهاء منه) وقد اعتمد فى سنوات حكمه الأولى على القيادات الدينية والشعبية من المصريين عوضا عن نفوذ المماليك الذى خطط للتخلص منهم ، كما تخلص من جنوده الألبان غير المنضبطين وفى أوائل سنوات حكمه حاولت بريطانيا احتلال مصر عام ١٨٠٧ م ، ولكنها فشلت بعد احتلالها الاسكندرية وعجزها عن التقدم جنوبا كون محمد على باشا جيشا حديثا قويا ملء السمع والبصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان ابنه ابراهيم باشا عبقرية عسكرية رفعت اسم مصر وواليها محمد على باشا عاليا مما أخاف الغرب المتربص ورأى فيه قوة صاعدة يجب اجهاضها . وقد أعان محمد على باشا السلطان العثمانى فى قمع الثورة الوهابية بالجزيرة العربية ، ودخلت جيوش ابراهيم باشا الخليج العربى وكافأه السلطان بإضافة الحجاز إلى ولايته . . وفتح السودان حتى المناطق الاستوائية وجزءاً من ارتيريا مقلداً الدول الغربية فى البحث عن موارد . . (وكانت هذه لغة العصر) واكتشف المصريون بحيرة صغيرة شمال بحيرة فيكتوريا سميت بحيرة ابراهيم . . ولكن المصادر لا تذكر ذلك إما لصغرها وإما ضنا بأن يكون لمصر دور فى الحركة الاستكشافية ، وآمن محمد على باشا بضرورة الانفتاح على علوم أوروبا فأرسل البعثات وأدخل العديد من النظم الأوروبية إلا أنه كان حذراً ومدركاً لمآرب الأوروبيين فى الشرق فلم يمنح أحداً منهم أية امتيازات وقد استخدم محمد على باشا نظام رأس مالية الدولة بالنسبة لامتلاك الأراضى فكان الفلاحون يزرعونها بالاشتراك مع الدولة ، وقام بإصلاحات عديدة شملت القوات المسلحة ، الصناعة ، الزراعة ، الرى . . سنورد أمثلة لها فيما بعد . . وما أن جاء العقد التاسع عشر حتى كانت مصر دولة قوية تستعين بها الخلافة العثمانية فى حروبها . . فقمع إبراهيم باشا بقواته المصرية الثورة العارمة فى شبه جزيرة المورة مما لفت أنظار الغرب لهذا الجيش الفتى والأسطول

الحديث .. فانتهزوا الفرصة ودمروا الأسطول المصرى العثمانى فى معركة نفارين باليونان .

- حربي الشام الأولى والثانية :

فى بداية العقد الثالث من القرن التاسع عشر قام محمد على باشا بغزو الشام ودب الخلاف بين محمد على باشا والسلطان عقب قيام محمد على باشا بفتح الشام لتأديب والى عكا والحقيقة أن الأسباب غير معروفة تماماً فربما كان ذلك بسبب رفض والى عكا توريد الأخشاب اللازمة لاعادة بناء الأسطول المصرى الذى تحطم فى معركة نفارين وربما لأن محمد على باشا أراد أن ينتهز ظروفا دولية مواتية لاستخلاص مكاسب شخصية وأسرية من السلطان العثمانى لتوطيد ملكه فقد فتح القائد ابراهيم باشا عكا التى عجز نابليون عن فتحها منذ نحو عشرين عاما ، وقابل جيش محمد على باشا القوات التركية فى ديسمبر ١٩٣٢ عند قونيه جنوب الأناضول وهزم جيش السلطان ، وأصبح الطريق لاسطنبول مفتوحاً . ويبدو أن اختيار التوقيت كان مناسباً للأسباب التالية :

١ - كانت بريطانيا مشغولة بثورة بلجيكا وانفصالها عن هولندا .

٢ - كانت فرنسا (ما بعد نابليون) تحاول ما وسعها الجهد استمالة والى مصر ليكون لها نفوذ شرقى .

٣ - كانت أطماع روسيا الدولية فى الشرق تقلق بال انجلترا وفرنسا ، كما أن تزايد النفوذ الروسى فى الامبراطورية العثمانية كان ضد المصالح الانجليزية .

ومما يؤيد هذا إعلان وزير خارجية انجلترا ، « أنه إذا اضطررنا يوماً أن نختار أحد أمرين إما استيلاء الجيوش المصرية على اسطنبول أو وضعها تحت النفوذ الروسى فإنه لن يكون فى وسعنا إلا أن نختار الأمر الأول » .
أما ما حدث فقد لجأ السلطان العثمانى إلى روسيا فى طلب المعاونة العسكرية بعد هزيمة جيوشه فى قونية ٢١ ديسمبر ١٨٣٢ م ، مما جعل انجليترا وفرنسا

يضغطان على السلطان لقبول طلبات محمد على باشا وينصحان محمد على بالاعتدال ووقف الهجوم المصرى عند كوتاهية والتى سميت اتفاقية الصلح باسمها فى ١٤ مايو ١٨٣٣ حيث وصل مندوبو الدول الأوروبية لابلاغ ابراهيم باشا بموافقة السلطان على منح مصر حكم سوريا مضافا إليها إقليم أطنة علاوة على مصر والسودان والجزيرة العربية . كان ذلك عام ١٨٣٣ م واستمر هذا الوضع القوى جداً بالنسبة لمحمد على باشا ست سنوات كاملة . . ومما يؤيد ذلك أيضاً تصريح رئيس حكومة فرنسا خلال أزمة ١٨٤٠ م عقب حرب الشام الثانية كما يسمونها فقال أن حكومة فرنسا تعتبر وجود مصر كقوة سياسية فى العالم أمرا ضروريا لابد منه حتى يكتمل التوازن بين حكومات العالم ، وذلك بسبب سعة الأقاليم التى تحكمها والبحار التى يمتد عليها سلطانها .

والحقيقة أن محمد على باشا كان لديه فرصة لتجديد دم الخلافة العثمانية خلال هذه السنوات ١٨٣٣ ـ ١٨٣٩ م ، إلا أن طموحه لم يرقى إلى هذا الحد ويتضح ذلك من الآتى :

عندما نشبت الحرب الأولى أعلن السطان خلعه وإهدار دمه . . ورد عليه محمد على باشا بإصدار فتوى من مفتى مكة المكرمة التى كانت تابعة لمصر بأن السلطان نفسه غير كفء للحكم ولابد من خلعه . وتولية ابنه القاصر بدلا منه بوصاية محمد على باشا ، فكان هذا أقصى طموحه ونستعرض معا خطاب ابراهيم باشا لأبيه بعد معركة قونيه فيقول فى ٢٨ ديسمبر ١٩٣٢ م :

أستطيع أن أصل إلى الآستانة ومعى محمد رشيد باشا ، وأستطيع خلع السطان حالا ، وبدون صعوبة ولكنى مضطر إلى أن أعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى أتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لأن مسألتنا لا تسوى إلا فى إستانبول فالواجب أن نذهب إلى إستانبول . . حيث نملى إرادتنا ، وإنى مضطر أن أكرر على مسامعك أن الدعاوى لا توصلنا إلى أغراضنا وإذا أنت رميت من الشائعات التى تذيعها إلى غرض سياسى بأن تهدد إستانبول لتقبل شروطنا ، كان من العبث أن نقف فى قونية فلا نتقدم منها إلى الأمام . فإن

قونية بعيدة عن رجال الآستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح معنا إلا إذا دخلنا عليهم فى العاصمة كذلك هم فعلوا مع الروس فإنهم لم يقبلوا إبرام الصلح معهم إلا بعد وصولهم إلى جلمجة بضاحية إستانبول الواجب إذن أن نواصل الزحف حتى بورصة على الأقل مع احتلال المدن الواقعة على بحر مرمرة ، وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر حينئذ فقط نستطيع أن نذيع الأخبار التى قد تقضى إلى عزل السلطان . وإذا نحن لم نفلح فى إسقاط السلطان توصلنا على الأقل إلى إبرام صلح يحقق أمانينا وأننا لولا الأمرين الأخيرين اللذين تلقيتها منك لكنت الآن على أبواب إستانبول .

وإنى لأسأل نفسى ما هو الداعى الذى دعا إلى إصدار تلك الأوامر إلىّ ؟

أهو الخوف من أوروبا أم هو شىء آخر لا أعرفه ؟

ألتمس منك أن تنيرنى فى هذه المسألة قبل انفلات الفرصة من أيدينا ، نعم إنى ألتمس إبلاغى فى أمركم القاطع بهذا الصدد » . .

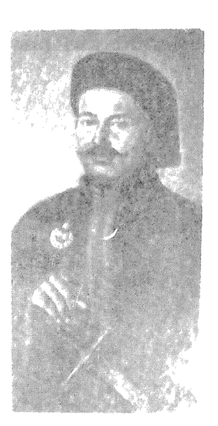
(انتهى النص)

ولو كان محمد على باشا واصل تقدمه بعد كوتاهية ودخل استانبول ونجح فى تأمينها ضد الروس لرحبت انجلترا وفرنسا بذلك للأسباب التى أوردناها سابقاً ، ولكنه مجرد احتمال ، لأنه بعد ست سنوات حرضت انجلترا السلطان على حرب محمد على مرة أخرى (حرب الشام الثانية) وكان لها مع الدول الأوروبية الأخرى رأى آخر فرغم هزيمة السلطان محمود الثانى فى معركة نزيب فى ٢٤ يونية ١٨٣٩ م . . التى تسمى فى الأكاديميات العسكرية بالمعركة التى ليس بعدها معركة حيث أبيد الجيش العثمانى تماما وأصبح الطريق مرة أخرى لاستانبول مفتوحاً علاوة على استسلام الأسطول العثمانى أو جزء منه فى الاسكندرية إلا أن الدول الأوروبية وعلى رأسها انجلترا وروسيا ألقت بثقلها فى جانب السلطان . وكانت أزمة ١٨٤٠ م التى انتهت بمعاهدة لندن . ونلاحظ أن تصريحات بالمرستون لفرنسا فى الحرب السابقة التى قال فيها (أنه كان يروم من صميم فؤاده أن يرى والى مصر حتى فى منصب الخلافة لو أن

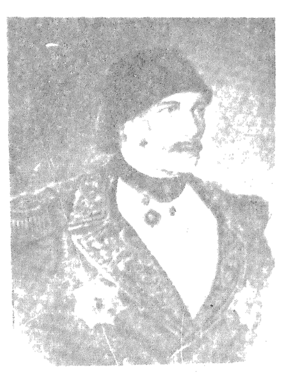


« إبراهيم باشا » قائد الجيش المصرى فى عهد « محمد على » ـ بسط السيطرة المصرية على الحجاز واليمن والسودان والشام واجزاء من اليونان وتركيا .

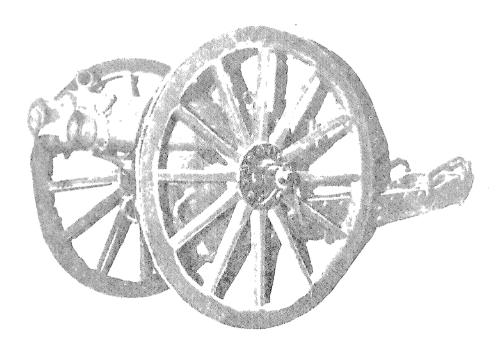
"Ibrahim Pasha" the commander of the Egyptian Army in the reign of "Mohammed Ali". He extended the Egyptian domination over the Arabian peninsula, Yemen, the Sudan, Syria, and some parts of Greece and Turkey.



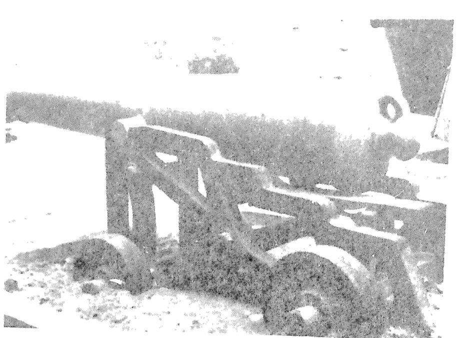
الفريق « خورشيد طاهر باشا » القائد العام للجيش المصرى بشبه الجزيرة العربية فى عهد « محمد على » وصل بالنفوذ المصرى حتى الخليج العربى والبحرين .



أمير البحر « مصطفى قطوش باشا » قائد الاسطول المصرى فى عهد محمد علي ـ بسط السيطرة البحرية المصرية على كل من جزيرتى قبرص وكريت وسواحل اليونان .



مدفع ميدان (عهد محمد على)



مدفع ساحلى « عهد محمد على »

لديه ما يضمن بقاء الدولة وتماسكها فى المستقبل)[1] ، كما قال فى مناسبة أخرى (أن انجلترا ترى أنه خير لأوروبا وصالحها أن يحكم الدولة العثمانية حاكم قوى خير من سلطان يكون آلة فى يد روسيا)[2] . تبخرت هذه التصريحات بسبب تغير الظروف الدولية واختلافها .

فتم إنذار محمد على باشا بإخلاء الشام ولم يجد محمد على من فرنسا بالذات استعدادا قويا لمساندته فأذعن لارادة الدول الأوروبية ، وقبلت مصر معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م حيث تم تحجيم سلطة والى مصر داخل وادى النيل فقط مع إعلانه الولاء للسلطان الذى أقره على أن تكون ولاية مصر محصورة فى أسرته وأن يظل السودان فى حوزة مصر . ولكن هذه الفترة الحرجة من تاريخ العالم الاسلامى تستحق بحوثا أكثر لفهم جزئيات التاريخ .

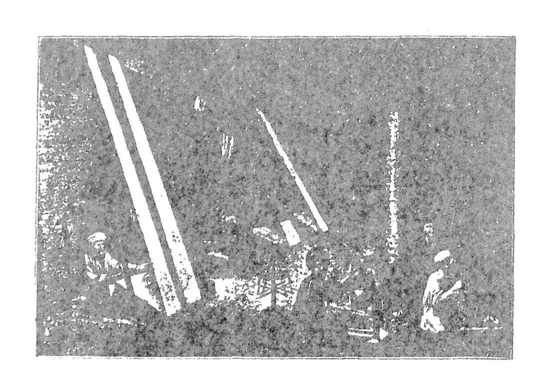
إصلاحات محمد على باشا :

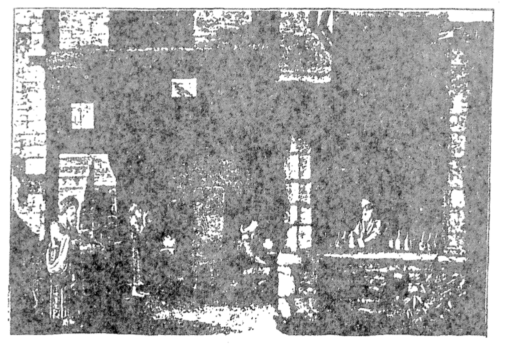
خلال فترة حكم محمد على باشا الطويلة تغير المجتمع المصرى إلى حد كبير وظهرت ملامح الطبقة الوسطى . ومما يفيد إلقاء الضوء على حجم الاصلاحات التى قام بها محمد على باشا تفصيلا ، ليلم القارىء بحجم النهضة التى حققها هذا الرجل الفذ . فقد أنشأ مصانع كبرى تدار بالآلات ، وأدخل زراعة القطن طويل التيلة فى مصر ، وأدخل زراعة التوت ، واستكثر من زراعة الزيتون ، وأنشأ القناطر الخيرية لتنظيم الرى ، وشق العديد من المجارى المائية . وفى مجال الصناعة كانت مصانع الغزل والنسيج فى مقدمة المصانع التى أنشأها مثل مصنع الخرنفش ، ومصنع مالطة ، ومصنع ابراهيم أغا ، والسبتية والمبيضة بين بولاق وشبرا على شاطىء النيل الذى كانت تبيض فيه الأقمشة . وبالقرب من هذا المصنع أنشأ مصنعا لنسيج البركال وهو نوع من الشيت الرقيق ، ومصنع أمشاط الغزل بالسيدة زينب ، ومصنع الجوخ ببولاق ، ومصنع الحرير بالخرنفش ، ومصنع الحبال بالقاهرة ، ومصنع

---

(١) سجلات وزارة الخارجية بلندن من بالمرستون إلى سفيره فى القسطنطينية ديسمبر ١٨٣٣

(٢) سجلات وزارة الخارجية بلندن خطاب مسيو تيير الى السفير الفرنسى بلندن بتاريخ ١٨٤٠/١٠/٨ م





بقايا الصناعات المصرية

(١ ـ مصنع نسيج — ٢ ـ مصنع زجاج)

الطرابيش فى فوه . كما أنشأ عددا من مصانع الغزل والنسيج فى قليوب وشبين الكوم ، والمحلة الكبرى ، وزفتى وميت غمر والمنصورة ، ودمياط ، ودمنهور ، وفوه ، ورشيد . وفى الوجه القبلى فى بنى سويف ، وأسيوط ، والمنيا وفرشوط ، وطهطا ، وجرجا ، وقنا ، . . وكانت منتجات هذه المصانع تصدر إلى ثغور البحر الأدرياتيكى ، وتوسكانيا بإيطاليا ، ومنها إلى داخل إيطاليا وألمانيا . أما باقى الانتاج فكان للاستهلاك المحلى . . كما أنشأ صناعة سبك الحديد فى بولاق ، ومصنعا لعمل ألواح النحاس التى كانت تبطن بها السفن وأنشأ عدة مصانع لصناعة السكر فى الوجه القبلى ومصانع النيلة فى شبرا شهاب ، والعزازية وميت غمر ، والمنصورة ، ومنوف ، وإيبيار ، والأشمونين ، وبركة السبع ، والمحلة الكبرى ، والجيزة ، وأبو تيج ، وملوى ، ومنفلوط ، وطهطا ، وأسيوط ، والفشن ، ومصنعا للصابون ، ومدبغة لدبغ الجلود فى رشيد ومصنعا للزجاج والصينى .

وفى مجال صناعة الأسلحة أسس ترسانة القلعة لصنع الأسلحة وصب المدافع ، ومصنعا للبنادق فى الحوض المرصود بحى السيدة زينب ، ومعامل للبارود فى جزيرة الروضة ، وفى البدرشين ، والأشمونين ، والفيوم ، وأهناسيا ، وأسس فى بولاق ترسانة لبناء السفن النيلية والبحرية ، وأقام فى الاسكندرية ترسانة دار الصناعة الكبرى لبناء السفن الحربية ، وحوضاً لترميم السفن ، وأنشأ مدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين وكان من بين المدارس التى أنشأها مدرسة الهندسة فى القلعة ، ومدرسة المهندسخانة فى بولاق ، ومدرسة الطب بالقصر العينى ، ومدرسة الصيدلة ، ومدرسة الولادة ، ومدرسة الألسن ، ومدرسة المعادن بمصر القديمة ، ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب ، ومدرسة الفنون والصنائع ، ومدرسة الزراعة فى نبروه ، ومدرسة الطب البيطرى ، والمدرسة التجهيزية (الثانوية) ، فى القاهرة والاسكندرية ، وعددا كبيرا من المدارس الابتدائية فى معظم مديريات الوجهين القبلى والبحرى .

لقد تعمدت الاطالة لأن الأمر متعلق بمصر الحبيبة ، لأن الحاكم وحده مهما كان فذاً عبقرياً لا يستطيع مع أية بطانة له أن يفعل كل ذلك « أنه الشعب



رفاعة الطهطاوى — مختار بك احد وزراء المعارف — حسن بك وزير البحرية — مصطفى بك مهندس القناطر الخيرية

مصطفى محرجى مهندس — محمد شافعى ناظر مدرسة الطب — محمد على باشا الحكيم (طبيب وجراح) — محمد السكرى مدرس بمدرسة الطب

بعض طلبة البحوث العلمية

المصرى الأصيل » الذى يقف بحسه المرهف إلى جانب الحكام المخلصين لنهضته .

ومن المعروف أن كل مصنع ذكرناه كان به عمال ، ومديرون ، وإنتاج ، وطاقة محركة ولما كان التحضر يقاس بكمية طاقة الحركة التى يستخدمها الانسان لنفسه ، فكم وحدة طاقة كان يستخدمها شعب مصر الذى لم يتجاوز تعداده سبعة ملايين نسمة فى ذلك الوقت .

هذا ما وددت لفت النظر إليه وقبل أن ننتهى من إنجازات منشىء مصر الحديثة لا ينبغى أن ننسى أنه أصدر أول صحيفة مصرية (الوقائع) ، وكان مؤمنا بالتمسك بالتنشئة الإسلامية فلا ننسى أن العلامة رفاعة الطهطاوى الذى بزغ نجمه كعالم متنور قد أرسله محمد على باشا مرافقا لبعثة أخرى للعمل كإمام ورجل دين ليحمى أفراد البعثة من سلبيات الحياة الأوربية رحم الله محمد على باشا ، فعلى الرغم من طول مدة حكمه إلا أن مصر كانت تلهث وراء إصلاحاته وطموحاته وإن كانت الحركة الثقافية والفكرية لم تحظ بنفس القدر من العناية لأنها تحتاج وقتا أطول وقد خلف محمد على باشا واليان ضعيفان وهما عباس ، وسعيد ولكن ما أن تولى حفيده اسماعيل باشا الحكم حتى كانت المحاولة الثانية للنهضة والتحديث ورغم الاختلاف الشديد فى موقف المؤرخين من اسماعيل باشا فإنه مما يذكر له التوسع فى أفريقيا وأريتريا (موانى زيلع ومصوع وسواكن على البحر الأحمر) وأنه أنشأ أول مجلس تشريعى عام ١٨٦٦ م وأنه كان يتمنى رؤية مصر كقطعة من أوروبا ، واهتم بالفنون فأنشأ الأوبرا المصرية ، كما أرسل البعثات إلى أوروبا ونظم الجيش ، وازدهرت فى عصره حركات الترجمة ، مما أسهم فى زيادة الوعى السياسى والفكرى لدى الشعب المصرى ، ولكنه تورط فى الاستدانة من الدول الأوروبية المتربصة بمصر الأمر الذى انتهى بعزله عام ١٨٧٩ م .



اسماعيل باشا

القسم الثالث

الحركات الدينية السياسية

الحركة الوهابية :

تبدأ جميع الحركات السلفية بالدعوة للتمسك بالقرآن والسنة المطهرة ، وما كان عليه السلف الصالح من صدق وإيمان وهكذا قام محمد بن عبد الوهاب فى القرن الثامن عشر يدعو المسلمين إلى مذهب ابن حنبل فى التوسل لله وحده والتمسك بالاسلام ومحاربة البدع وفى عام ١٧٤٤ م هاجر محمد بن عبد الوهاب إلى الدرعية وتم الاتفاق بينه وبين أميرها الأمير محمد بن سعود على النصرة والتعاون فى نشر الدعوة بعد أن أظهر العداء لها الكثيرون من الأمراء مثل أمير الرياض عام ١٧٦٥ م وقام الأمراء السعوديون بمساندة المذهب وتوسيع إماراتهم على حساب الامارات الأخرى ، فدخلوا الرياض ومكة ، وأرسل أحد الأمراء السعوديين ابنه إلى العراق فاستولى على كربلاء ، وهدم ضريح الحسين رضى الله عنه وقد أثارت هذه الفعلة الكثيرين ودفع حياته ثمنا لها إذ اغتاله أحد المسلمين الشيعة عام ١٨٠٣ م ولم ترض الامبراطورية العثمانية عما يجرى فى الجزيرة العربية وضياع سلطانها على الحجاز فكلف السلطان العثمانى محمود الثانى والى مصر محمد على باشا باستعادة السيطرة على الحجاز وقمع الحركة السعودية الوهابية وقد تم ذلك عام ١٨١٨ م بعد استيلاء القائد ابراهيم باشا بن محمد على ، على قاعدة السعوديين فى الدرعية ، وقوى النفوذ المصرى فى الجزيرة فقد أرسل خورشيد باشا والى محمد على باشا حملات حتى عمان واستطاع السيطرة على الأحساء ، ودخل فى طاعته أمير البحرين وهنا تدخل الانجليز فى شئون الخليج والحقيقة أن حكام وأمراء الجزيرة العربية لم يكونوا على دراية كافية بما يدور فى العالم وبالخطر المحدق بالأمة ككل فقد كانوا يقاتلون بعضهم بعضا ثم تعاون البعض منهم (شيوخ الخليج العربى) مع الأوربيين نظير إبقائهم فى مناصب الامارة .

أما الحركة الوهابية نفسها منذ نشأت عام ١٧٤٤ م فلم تكن إلا تشعبا لمذهب الإمام ابن حنبل الذى يميل إلى التشدد وما زالت المملكة السعودية تأخذ به . وأما أثرها فقد ظهر فى هدم الأضرحة ومحاربة بعض البدع أثناء زيارة القبور ومراسم الحداد وعدم لبس الحرير والتحلى بالذهب للرجال . وقد تلقف الدعوة أمراء البيت السعودى ، وحاربوا القبائل الأخرى لتوطيد سيطرتهم على الجزيرة العربية ومن الصعب التقرير بأن الحركة الوهابية كان لها أثر فى صحوة إسلامية تقف ضد المد الاستعمارى الأوروبى أو أنها ساهمت فى مقاومة الأمة الإسلامية فى صراعها مع الغرب بل على العكس فقد كانت الحركة لا تشجع على أية استفادة من خارج المذهب الحنبلى (الذى فيه الكفاية من وجهة نظرهم) وكثيراً ما كان يردد بعض الدعاة وربما لا يزالون « أن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار » ناسين أو متناسين أن المقصود هو الابتداع فى الدين وليس الابتداع فى أمور الدنيا !! الأمر المطلوب والمرغوب فيه .

الحركة المهدية بالسودان :

قام بالحركة رجل يدعى محمد أحمد وادعى أنه المهدى المنتظر ولد فى دنقلة عام ١٨٤٣ م ، وفى سنة ١٨٨١ أخذ يكتب الرسائل إلى فقهاء السودان يخبرهم أنه المهدى المنتظر وأن كل من لا يؤمن هالك لا محالة سواء كان وثنيا أو مسيحياً أو مسلماً وشاع ذكره رغم فتوى علماء السودان بأنه دجال ولكن سوء حالة الحكومة جعلت الكثيرين يلتفون حوله بعد أن كادوا ينفضون عنه . . ومنذ أكثر من عشر سنوات كان الخديوى اسماعيل باشا والى مصر يحاول جاهداً حماية السودان من الخطر الأوروبى ، فاستولى على مرتفعات أريتريا فى عام ١٨٧٥ ، ١٨٧٦ ثم على مينائى سواكن ومصوع ، ولكن بعد أن غدر الأوربيون باسماعيل باشا عمل الانجليز وأعوانهم الذين كانوا يخدمون فى الادارة المصرية على أضعاف النفوذ المصرى بالسودان وخاصة بعد قمع الثورة العرابية فى مصر واحتلالها عام ١٨٨٢ وكان المهدى قد بدأ دعوته عام ١٨٨١

وأعلن أنه يقود حركة لتجديد الإسلام ، وتحرير بلاده من الترك والنفوذ الانجليزى . بدأت الحكومة البريطانية فى عام ١٨٨٤ م فى الضغط على المصريين موظفين وعسكريين لإخلاء السودان ، وكانت الحكومة المصرية رغم ضعفها لا زالت تأمل فى إعادة تنظيم السودان الذى كانت تعتبره جزءاً مكملاً لمصر . أما الثورة المهدية فقد هاجمت الحاميات المصرية المنعزلة بالسودان ، واستطاع البعض مثل حكمدار الأبيض محمد سعيد باشا الصمود لهجمات الأنصار أتباع المهدى ، وحاول حكمدار السودان عام ١٨٨٣ م عبد القادر باشا حلمى إغاثة الأبيض ولكنه فشل . وخلال السنتين التاليتين ١٨٨٣ ، ١٨٨٥ م لم يهتم الانجليز بأمر المصريين المنقطعين بالسودان ، وسيطر المهدى على معظم السودان ودخل الخرطوم بعد حصارها ، فقتل غوردن باشا ودخل أتباعه العاصمة فى ٢٨ يناير ١٨٨٥ م - واستولوا على أرض الجزيرة وبذلك سيطر المهديون على السودان كله فيما عدا سواكن . وكان المهدى قد اختار من بين رجاله أربعة من كبار الزعماء وعينهم خلفاء له أولهم عبد الله التعايشى ولقبه بالصديق أبو بكر . . ولقب الثلاثة الآخرين على التوالى بالفاروق ، عثمان ، والكرار ، ويقصد به علياً بن أبى طالب . وبعد موت المهدى وقع خلاف كالعادة فى مثل هذه الحركات ولكن عبد الله التعايشى تمكن من الأمر . . وأعلن نفسه خليفة للمهدى ثم انتصر المهديون على الأحباش الذين كانوا قد طمعوا فى بعض أراضى السودان ، ولكن المصريون هزموهم فى معركة توشكى عندما فكروا فى غزو مصر . . ومن الطريف أنه منذ عام ١٨٨٦ م لم يعد هناك حاكم لاقليم بحر الغزال ، كذلك مديرية خط الاستواء فضمها الانجليز ببساطة إلى أوغنده ولم يفعل أنصار المهدى شيئاً . كذلك هزم المهديون أمام الايطاليين عام ١٨٩٣ م فى معركة أغورادت ، واستولى الايطاليون على مصوع . وفى عام ١٨٩١ م تمكنت قوة مصرية من هزيمة المهديين قرب مدينة طوكر فى ناصية سواكن . . فى عام ١٨٩٦ م التقت الحملة بقيادة كتشنر مع قوات التعايشى فى معركة أم درمان وقتل فيها ١١,٠٠٠ سودانى وجرح ١٦,٠٠٠ فقد حصدت المدافع

الانجليزية قوات الحركة المهدية ودخلوا الخرطوم . . وتم القضاء على الدولة المهدية التى لم تعمر أكثر من سبعة عشر عاماً لم تضف كثيراً لروح المقاومة ضد سيطرة الغرب على العالم الإسلامى .

الحركة السنوسية :

تدخل الحركة السنوسية فى نطاق الصوفية العاملة ولكن الظروف فرضت عليها أن تدخل ميدان الصوفية المجاهدة نتيجة لمطامع أوروبا ، وعجز وتخاذل العثمانيين . . قد نهضت الحركة السنوسية بالمسئولية من قبل الحفصيين وقد حرص السنوسيون على إنشاء زوايا وهى مراكز دينية ، تجارية ، اجتماعية فى الصحراء وأثبتوا كفاءة عظيمة فى إدارة تلك الزوايا وتحويلها إلى مراكز مقاومة إسلامية وقواعد لانتشار الإسلام الواسع فى تشاد والكمرون وقد وضع بعض القادة السنوسيين قاعدة عظيمة هى تحرير الرقيق الذين يدخلون الإسلام . وتوفى مؤسس الحركة فى ١٨٥٩ م وكانت الحركة حتى ذلك الحين إسلامية عامة ، ولكنها تحولت إلى إمارة سياسية ولا يفوتنا أن نذكر أن السنوسيين رفضوا الانضمام إلى الحركة المهدية فى السودان وأن القائد محمد المهدى السنوسى كان على علاقة طيبة بالدولة العثمانية . ولما قررت الدولة العثمانية الاعتراف بالولاية الايطالية على ليبيا ١٩١١ م قام الوالى العثمانى بزيارة أحمد الشريف السنوسى فى جغبوب وأبلغه أن تركيا ترد ليبيا إلى أهلها ، وتكل إليهم أمر الدفاع عن أنفسهم ضد الاعتداء الايطالى .

وتمكن السنوسيون من إحراز انتصارات هامة على الايطاليين فى واقعة القرطابية سنة ١٩١٥ م ، وأخرجوهم من فزان ومن المهم أن نذكر هنا اسم القائد الليبى رمضان السويحلى ، ثم انتهوا إلى صلح مع الايطاليين عام ١٩١٩ م يعترف إسمياً بالتبعية لايطاليا ، مع إنشاء حكومة مؤلفة من مجلس من ثمانية أعضاء من الليبيين واثنين من الايطاليين يختارهم نائب الملك ولما أغارت فرنسا على فزان نقضت إيطاليا اتفاقها مع الليبيين وأرسلت قوات ضخمة من إيطاليا إلى ليبيا . . واجتاحت العالم العربى موجة من الحماس لدعم ليبيا وتطوع الكثيرون فى الجيش الليبى ، منهم قادة مصريون مثل الفريق

عزيز المصرى باشا وعبد الرحمن عزام باشا وصالح حرب باشا واستمرت الحرب إلى أن انتهت باتفاق طبرق عام ١٩٢٠ م وخلاصته أن تستمر طرابلس فى يد الايطاليين مع الاحتفاظ بمظاهر الاستقلال الداخلى وترك الحرية للسنوسيين فى برقة ثم استولى الفاشيون على الحكم فى إيطاليا عام ١٩٢٢ م ، وأراد الدكتاتور موسيلينى أن يرفع من شأن إيطاليا خارجيا وفقا للقاعدة التى أشرنا إليها من قبل ألا وهى الاستيلاء على مزيد من أرض المسلمين . . ويمزيد من قهر شعوبها ، فألغى كافة الاتفاقات وأرسل جيوشاً ضخمة تكبدت الكثير من الخسائر أمام عنف المقاومة الليبية بقيادة السيد عمر المختار . . وقد لجأ الايطاليون إلى أقسى أساليب العنف الممنوعة دولياً مع الليبيين ، حتى تمكنوا من إخضاعهم ثم ألغوا الزوايا ، وأغلقوا المدارس ، وجعلوا اللغة الايطالية لغة رسمية ، وأرسلت الألوف من إيطاليا لاستيطان ليبيا أملا فى تغيير تركيبتها السكانية واستمرت المقاومة حتى ١٩٣١ م حتى توقفت بإعدام البطل عمر المختار وانتهت بذلك الحركة السنوسية .

القسم الرابع
محاولات السلطان عبد الحميـد
(١٨٧٦ - ١٩٠٨ م) الاصـلاحية

اقترنت السنتان الأوليان من حكم السلطان عبد الحميد بهزائم عسكرية أليمه الا أنه قام بجهود وأصلاحات كبيرة ، وأدار سياسته الخارجية بحكمة واقتدار أجلت سقوط الدولة أكثر من نصف قرن فمن إصلاحاته فى الداخل انشاؤه جامعة اسطنبول ، وفرض ضريبة خاصة للتعليم ، وانشاء مدارس للتعليم المدنى مع ابقائه على المدارس الدينية لتدريس الدين واللغة العربية ، والعناية بالتعليم العسكرى فقد أنشأ تسعا وعشرين مدرسة ، ست منها فى العاصمة وواحدة فى كل ولاية كبرى ، وبلغ مجموع الدارسين ٨٢٤٧ طالبا ، وكانت هذه المدارس تؤهل طلبتها للالتحاق بالكليات العسكرية ، وأنشأ مكتبات عامة ، وظهرت فى عهده الصحافة الفنية مثل مجلة (ثروقى فنون) . . (ثروة الفنون) كما أنشأ مدرسة الحقوق السلطانية ، وأصلح النظام القضائى ، وتوسع فى إنشاء السكك الحديدية ، فبلغت فى أواخر عهده ٥٣٨٣ ميلا أكثر من ثلاثة أضعاف ما كان موجودا قبل ولايته وفى ١٢ أغسطس عام ١٨٨٨ م غادر أول قطار من فيينا إلى أسطنبول . وقد توسع فى استخدام البرق لخدمة الجمهور ، وكان من قبل لخدمة الحكومة فقط .

ومن أهم أعماله احتضانه لفكرة الجامعة الاسلامية وتزعم فكرة التقارب بين الدولة العثمانية وولاياتها العربية ، ودعم الصلات الاسلامية بينه وبين مسلمى العالم مما أقلق الغرب من تنامى نفوذه وليس معنى ذلك أن السلطان عبد الحميد بلا أخطاء كما أننا لسنا بصدد تقييم حكم السلطان الذى تم عزله عام ١٩٠٨ م بانقلاب عسكرى قاده أعضاء جمعية الاتحاد والترقى التى تطالب بالمزيد من الاصلاحات الدستورية والتغريب وإهمال التقارب العربى . . وتتريك الدولة . . لقد كان لهذا السلطان خصوم كثيرون من الداخل والخارج أسموه بالسلطان الأحمر مشيعين عنه حبه لسفك الدماء ، وأنه

أجاز الدستور ثم عطله وكبت الحريات ونشر الجواسيس . ولكن الظاهر لنا أن معدل التدهور وانتقاص أملاك الدولة خلال فترة حكمه ٣٣ سنة قد أنخفض كثيرا . فلم تفقد الدولة العثمانية خلال حكمه الا مصر ١٨٨٢ م . . وكانت بريطانيا تدعى دائما أن وجودها فيها مؤقت ونيابة عن الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ، كما حققت الدولة أول انتصار لها على اليونان عام ١٨٩٧ م . والثابت انه أستغل جميع التناقضات بين الدولة الأوروبية لصالح الدولة العثمانية وخاصة صداقته مع القيصر الألمانى زار اسطنبول واعترف به خليفة لكل مسلمى العالم مما آثار حفيظة الدولة الاستعمارية وخاصة بعد احتضانه لحركة الجامعة الإسلامية .

أسباب احتضان السلطان عبد الحميد لفكرة الجامعة الإسلامية :

رأى السلطان عبد الحميد فى الجامعة الإسلامية سياجا يحمى الدولة من الأخطار التى كانت تحيط بها من كل جانب أمام أطماع روسيا ، والنمسا ، والمجر ، وبريطانيا . فى الوقت الذى سادت فى أوروبا فكرة طرد العثمانيين من أوروبا وتأييد الشعوب البلقانية المسيحية للتحرر من الحكم الإسلامى المتخلف . وكان جلادستون الانجليزى يحمل حقدا وبغضا شديدين للدولة العثمانية والإسلام ، ورأى السلطان عبد الحميد أن يعيد لمنصب الخلافة هيبته عن طريق اعتراف الدولة الأوروبية بزعامته الروحية على كافة مسلمى العالم . ومن هنا كانت الخلافة أقوى رابطة بين الدولة العثمانية والعالم الإسلامى ، ولذلك حرص على أن يقرن اسمه بالألقاب الدينية مثل أمير المؤمنين ، وخادم الحرمين ، وغير ذلك من الألقاب مستهدفاً اكتساب الطاعة والولاء لعرشه من العناصر الإسلامية غير التركية وغير العثمانيين من رعايا الدول الأخرى ، أى أن السلطان عبد الحميد أراد أن يستفيد بنفوذه كخليفة لدعم موقف الدولة تجاه أطماع ومخططات الدول الأوروبية وفى سبيل ذلك أهتم بالنواحى الدينية ، وأدخل اللغة العربية فى مناهج الدراسة فى المدارس الدينية ، ولم يحدث ذلك من قبل ، وبدأ يمارس هذا الحق فى تعيين الموظفين الدينيين فى الولايات العثمانية السابقة ، والتى دخلت تحت السيطرة الأوروبية ،

وكان يختار بنفسه القضاة والمدرسين من علماء الدين ويبعث بهم إلى مصر ، بلاد القرم ، والبوسنه والهرسك ، وبلغاريا ، وكان يحتج ويتدخل رسمياً إذا جاءت أنباء بوقوع مظالم على المسلمين فى هذه البلاد .

وقد أدرك السلطان عبد الحميد أن العرب هم هدف التوسع الاستعمارى فى هذه المرحلة الذى يعمل على فصلهم عن الدولة العثمانية تمهيداً لابتلاعهم ، لذلك أهتم بالبلاد العربية ، وقرب الكثيرين من رجال العرب ، وقام ببعض الاصلاحات فى المدن الكبرى ، وخصص أموالا لصيانة المسجد الحرام والمسجد النبوى ، والمسجد الأقصى ، وانشأ مكتبات عامة فى المدن الكبيرة منها المكتبة العثمانية بالمدينة المنورة ، ووثق صلاته الخاصة بالعرب ، وشجع على اصدار جريدة العروة الوثقى فى باريس ١٨٨٤ م التى تعاون فى اصدارها الشيخ جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده لدعوة الأمة الإسلامية للاتحاد ومقاومة الاستعمار وتعريف المسلمين بالأخطار المحدقة بهم مع الأخذ بأسباب النهوض العصرية ، والحقيقة أن فكرة الجامعة الإسلامية أقلقت الغرب وخاصة انجلترا وفرنسا خوفا من مسلمى الهند الذين لم يمض على ذهاب سلطانهم أمد بعيد (١٨٥٨ م) . كذلك فرنسا خشيت على نفوذها فى شمال أفريقيا والدليل على ذلك أن فرنسا فى أثناء الثورة العرابية كانت ضد فكرة ارسال قوة عثمانية لتهدئة الحال بمصر ، واعتبرت غزو بريطانيا عام ١٨٨٢ م لمصر أقل الضررين وأهون خطراً من ارسال قوة عثمانية فى ظروف تصاعد حركة الجامعة الإسلامية .

ومما يؤكد نجاح الفكرة فى تحقيق هدفها أنه فى الحرب الأخيرة بين العثمانيين واليونانيين فى عام ١٨٩٧ م حقق العثمانيون بعض الانتصارات ولم يكن لمثل هذا الحدث من قبل رد فعل مثل الذى حدث فى جميع العالم الإسلامى عقب هذه الانتصارات فقد أقيمت احتفالات على نطاق واسع فى كافة البلاد الإسلامية التى تقع خارج نطاق الدولة العثمانية ، وبعد هذه الإحتفالات قامت الجماهير الإسلامية فى الهند وأندونيسيا وتركستان ومدغشقر والجزائر وغيرها بمظاهرات وانتفاضات تطالب بالتحرر من الحكم الأوروبى المسيحى وكان السلطان عبد الحميد يتابع ذلك سعيداً

بنجاح فكرته التى هى جزء من ادارته الحكيمه للصراع بين الدولة العثمانية والدول الاستعمارية . والدولة الأوروبية الوحيدة التى قبلت حركة الجامعة الإسلامية كانت ألمانيا لأن مستعمراتها كانت خالية من المسلمين كما إنها كانت المنافس الصاعد لكل من فرنسا وبريطانيا العظمى وكان ذلك هو سر التقارب العثمانى الألمانى . . وقام القيصر غليوم الثانى بزيارة السلطان عبد الحميد فى اسطنبول ١٨٩٨ م ، ثم اتجه إلى القدس ، ثم دمشق ليضع إكليلا من الزهور على قبر صلاح الدين وخطب فقال :

« فليطمئن صاحب العظمة السلطان وليطمئن ملايين المسلمين الذين يجلونه باعتبار انه الخليفة إلى انهم سيجدون فى أمبراطور ألمانيا الصديق الدائم لهم » . وفى ذلك اعتراف لما كان يسعى اليه السلطان عبد الحميد من مد نفوذه باعتباره خليفة لكافة المسلمين . والحقيقة انه لم يرد ذلك الا لمقاومة أطماع الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وانجلترا وروسيا . يشاكسهم كما يفعلون ويضغط عليهم بتحريضه الرعايا المسلمين الذين لديهم عند اللزوم .

اللورد كرومر يهاجم حركة الجامعة الإسلامية :

لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر هو أول معتمد بريطانى شغل هذا المنصب بعد احتلال مصر عام ١٨٨٢ وفشل الثورة العرابية فى سبتمبر ١٨٨٣ م وظل شاغلا له أربع وعشرين سنة وقد هاجم لورد كرومر حركة الجامعة الإسلامية هجوما عنيفا عام ١٩٠٦ م فى تقرير له لحكومته فقال عنها انها حركة ترمى إلى تحدى الدول المسيحية ، وإنها حركة قائمة على بث البغضاء والتفرقة العرقية والدينية . وقال أيضا إنها حركة تقوم على احياء نظم ومبادىء وضعت منذ أكثر من ألف عام لارشاد وتوجيه مجتمعات بدائية وهى مبادىء تنطوى على الاعتراف بالرق وأن هذه المبادىء لم تعد ملائمة للعصر الحالى أو مناسبة للآراء الحديثة فضلا عن انها تدمج القوانين المدنية والجنائية

والدينية فى قالب مما أدى إلى تخلف جميع البلاد التى أعتنق أهلها الدين الإسلامى [1] .

وكان كرومر فى هذا الصدد على شاكله معظم المستشرقين الذين اتخذوا من العلم ستارا للتهجم على الإسلام والمسلمين . وقد تصدى له الامام محمد عبده مدافعا عن حركة الجامعة الاسلامية وعن السلطان عبد الحميد الذى وصفه بأنه أعظم سلاطين المسلمين . وقد ظلت بريطانيا على معارضتها للحركة حتى بعد عزل السلطان عبد الحميد ورغم ذلك فقد تصاعدت الحركة فى مصر ابان الحرب الليبية ضد ايطاليا ونجحت الحركة جزئيا فى مرحلة الصراع الأولى بين الشعب الليبى وقوات الغزو الايطالى قبل وصول الفاشيين الايطاليين إلى الحكم .

مقدمات الحرب العالمية الأولى :

كان الجو السياسى ملبداً والخلافات مستحكمة بين الدول فى عدة مسائل شائكة فهناك مسألة الالزاس والورين بين ألمانيا وفرنسا . كذلك النزاع بينهما على تحديد مناطق النفوذ فى شمال أفريقيا وغيرها كذلك الخلاف بين النمسا والصرب وبين الصرب وبلغاريا على منطقة البوسنه والهرسك ذات الأغلبية المسلمة .

والخلاف بين انجلترا وألمانيا فى التنافس البحرى والتجارى والخلاف بين روسيا والنمسا للسيطرة على البلقان . فاشتد التوتر العالمى واندفع العالم فى طريق المخاطر . . كانت حادثة مقتل وارث العرش النمسوى وزوجته بواسطة صربى عام ١٩١٤ م القشه التى قصمت ظهر البعير عندما هاج الرأى العام النمسوى وتداعت الأحداث . ووقفت ألمانيا إلى جانب النمسا ومعهما بلغاريا وتركيا ووقفت فرنسا إلى جانب روسيا وصربيا ثم بريطانيا ومعظم دول العالم وفى نهاية الحرب اشتركت

---

(١) الإحتلال الإنجليزى دكتور محمد مصطفى ثروت .

الولايات المتحدة الأمريكية فى جانب الحلفاء بمواردها الضخمة وكان دفاع الرئيس ولسون عن القضية المشتركة للحلفاء قد اكسبها قوة أدبية عظمى فشروط الرئيس ولسون الأربعة عشرة الشهيرة هى التى وضعت أساساً معقولا للصلح فاضعفت مقاومة ألمانيا وحلفائها .

كان لبريطانيا وفرنسا من الأسباب القوية ما جعلهما تسعيان من أجل وقف نمو النفوذ الألمانى فى الشرق واجهاض الصحوة الكبيرة التى نشطت فى الدولة العثمانية وخاصة بعد نجاح فكرة الجامعة الإسلامية ، ومساندة ألمانيا لها ومدها يد العون لتحديث الدولة مقابل مشروع خطة سكة حديد برلين ـ بغداد ، كمرحلة أولى ، ليمتد بعد ذلك إلى البصره وكان السلطان عبد الحميد قد منح هذا الامتياز لشركة ألمانية فنشطت المخابرات البريطانية والفرنسية فى داخل الدولة العثمانية ، وقامت انجلترا وفرنسا بحملة تشنيع ضد السلطان عبد الحميد فى الداخل والخارج ونشطت حركة الجواسيس وفجأة حدث إنقلاب عسكرى بقيادة أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ، وتم عزل السلطان المشاغب وتولى السلطان محمد رشاد ، ولكن الحكم الفعلى كان بيد جمعية الاتحاد والترقى وكان ذلك فى عام ١٩٠٩ م . وهى جمعية تطالب بمزيد من الاصلاحات الدستورية ومزيد من التغريب ومقاومة التقارب العربى العثمانى كما نادت بتتريك الدولة وأهمال اللغة العربية . بعد قليل انقضت ايطاليا على ليبيا (ولايتى برقه وطرابلس) آخر الولايات العثمانية فى شمال أفريقيا عام ١٩١١ م . ولم تفعل الدولة العثمانية بقيادتها الجديدة شيئا يذكر .

تركيا بعد الحرب العالمية الأولى :

تورطت الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى ، وأعتقد أن هناك أسرارا خفية وراء هذا التوريط . . وربما كان الصهاينة وراء ذلك . ومما يذكر أن الصهاينه وزعيمهم الأول هرتزل حاولوا استمالة السلطان عبد الحميد للسماح لليهود بوطن قومى فى فلسطين مقابل سداد كل ديون الدولة فرفض ، المهم هزم التحالف الألمانى العثمانى وكان ما كان من تمزيق العالم الإسلامى بين

فرنسا وانجلترا ، وفى أثناء الحرب أغرى الانجليز أمير مكة الحسين بن على بوعده بتوحيد الأمة العربية ومنحها الاستقلال ، واقامة خلافة عربية ونجح الشريف حسين فى تحريك ثورة عربية ضد الدولة العثمانية فى أحرج الأوقات فهيأت الفرصة للأنجليز ليدخلوا القدس فى ديسمبر ١٩١٧ م . . ولا زال البعض يعدون الثورة المذكورة مؤامرة بل وخيانة ، ولكنى أرى إنها نتائج طبيعية لمقدمات طبيعية ، هى ازاحة عبد الحميد أولا ، ثم حركة التتريك المضادة للعرب ، وظهور حركة القومية العربية كرد فعل لحركة التتريك والتى كان من أشد دعاتها العرب المسيحيون فى الشام ، وخفوت صوت حركة الجامعة الإسلامية ثم زعامة مصطفى كمال لتركيا الحديثة .

بعد الهزيمة التركية وقعت هدنة مع الحلفاء فى ٣٠ أكتوبر ١٩١٨ م وأحتل الحلفاء بمقتضى هذه الهدنة المضايق واسطنبول ، وتجمع بعض الضباط من بقايا جمعية الاتحاد والترقى فى أطنه وأعلنوا أن تركيا ستحارب لاستعادة أراضيها . وفى مايو ١٩١٩ م ترك مصطفى كمال وأصحابه اسطنبول قبل دخول الحلفاء وتجمعوا فى أرضروم وأعلنوا استقلال تركيا ، وانتخب مصطفى كمال قائداً لقوات التحرير فى أبريل ١٩٢٠ م فى أثناء ذلك كان السلطان محمد السادس قد وقع معاهدة سيفر واعترف باحتلال الانجليز والفرنسيين لاسطنبول واليونان لأزمير . وبتحريض من رئيس الوزراء الانجليزى لويد جورج تقدم اليونانيون من أزمير واحتلوا عدة بلاد تركية فتصدت لهم جيوش مصطفى كمال وهزمتهم شر هزيمة فى موقعة نهر سقاريه وأخرج اليونانيون من آسيا الصغرى وأنسحب الانجليز والفرنسيون من أسطنبول دون معارك حربية جدية وكذلك الايطاليون من منطقة أنطاليا ورودوس وجزر الدوكانيز ، وجرت مفاوضات انتهت بمعاهدة لوزان يوليو ١٩٢٣ م ، اعترفت فيه الدول باستقلال تركيا وجعلت حدودها فى غرب نهر مارتيزا بما فى ذلك أدرنه مع نزع سلاح الجزء الأوروبى من تركيا ، واعترفت تركيا بفصل سوريا والعراق عنها ، وظهر كمال أتاتورك بمظهر البطل المحرر ، وفرح العالم الإسلامى فى كل مكان ، وقال أمير الشعراء فى مصر أحمد شوقى بك مبتهجا بعد انتصار الكماليون على

اليونانيين :

الله أكبر كم فى الفتح من عجب
يا خالد الترك جدد خالد العرب

وفى عام ١٩٢٤ ألغى كمال أتاتورك الخلافة الإسلامية ، رغم معارضة كافة المسلمين فى الداخل والخارج فكان قراراً دكتاتوريا قتل بسببه الكثير من المعارضين السياسيين ، وفى هذه النقطة بالذات يثار هنا وهناك جدل شديد حول ظروف الغاء السلطنه أولا ثم الخلافة ثانيا . وهناك آراء تشير الشكوك حول اتاتورك نفسه وترى أن حرب التحرير تمثيلية جعلته بطلا قوميا قادراً على الغاء الخلافة وكان ذلك تخطيطا من الغرب المنتصر الذى ما كان يمكن أن ينسحب عسكريا أمام اتاتورك بهذه السهولة (فقد انسحبت الجيوش البريطانية والفرنسية والبريطانية دون احتكاك يذكر ثم عقدت الهدنة وتم الاعتراف به) إلا باتفاق . . وثمن ، رغم ذهاب بعض الضحايا من اليونانيين ، والثمن هو السقوط الرسمى للخلافة الإسلامية ، ونحن لا نذهب إلى هذا الحد فربما كان هذا هو الممكن الوحيد لاحتفاظ تركيا بأراضيها ربما ساعد على ذلك أن معظم المثقفين الاصلاحيين من جمعية الاتحاد والترقى (اعداء أتاتورك) فيما بعد وغيرهم ، قد شاعت فيهم فكرة أن العالم العربى الإسلامى هو المسئول عن تخلف تركيا ، وإنها دفعت ثمنا باهظا لتصديها للدفاع عنه ، ولم تلق الا الجحود والنكران بل والخيانة فى الحرب العالمية الأولى ، ولا يستبعد أيضا أن يكون وراء ذلك أصابع أجنبية لزيادة الفرقة بين أبناء الأمة الواحدة ، والقضاء على فكرة الجامعة الإسلامية ، والحقيقة أن انقلاب جمعية الاتحاد والترقى لعزل السلطان عبد الحميد كان إنقلابا على فكرة الجامعة الإسلامية بالدرجة الأولى التى نجحت فى مناوءة الدول الاستعمارية ، ففكرة تتريك الدولة والترويج للأصول الطورانية للأتراك فى السنوات التالية للانقلاب كان تمهيداً لحركة التغريب الكاملة التى دعا إليها أتاتورك غير انها لم تقدم ما يثبت على نحو قاطع فكرة الثمن المدفوع لبطولة كمال أتاتورك الذى حكم بلاده حكما دكتاتوريا بالغ الصرامة حتى عام ١٩٣٧ م ثم خلفه عصمت أنينو الذى

أختاره من خارج أصدقاء الكفاح ، وكان رئيسا لأركان حربه وجعله يتخطى الجميع ليواصل سياسته الدكتوتورية البوليسية حتى ١٩٥٣ م ، ويسير على نفس النهج فى محاربة تراث الامبراطورية العثمانية ، واستمر النظر للتراث الدينى على أنه علة من علل التخلف ، وأصبحت تركيا الطورانية أو الأتاتوركية ترى وجوب اعادة النظر فى التاريخ المشترك مع الشعوب المتخلفة حضاريا وقد وصل الأمر إلى محاولة الغاء الأذان من المساجد فى أسطنبول بل إنه ألغى فعلا ولكنه عاد بعد ما يقرب من عام من الغائه .

ولا زال النهج التركى فى التغريب قائما حتى اليوم ولا تستطيع تقييم نتائجه من عام ١٩٢٣ م حتى الآن ، رغم معرفة الجميع أن تركيا لم تقبل حتى الآن فى السوق الأوروبية رغم تأكيدها فى كل مناسبة انها غربية التوجه ، ولم يرتفع الدخل القومى فيها كثيرا ، ولا زالت ديونها للغرب تزيد على الـ ٥٥ مليار دولار ، ولديها مشكلات عديدة ، منها ظهور تيار معاكس للتغريب الذى لم يتأصل رغم ما بذل من جهود لمحو الهوية التركية العثمانية التى لازالت تعيش فى وجدان الشعب التركى .

تعد مصر أهم جزء فى العالم الإسلامى لعب دوراً فى تاريخ القرن التاسع عشر إلى جانب تركيا ، وقد تلقى الشعب المصرى نتائج الحرب العالمية الأولى بالأسى والحزن والفهم أيضا لحركة التاريخ وخاصة فى الحركات الاصلاحية التى كانت تقوم بها كلا البلدين لمقاومة الاستعمار الأوروبى ، فالأفغانى كان فى مصر وتركيا يستنهض الهمم كذلك الشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد ، وأخيرا قامت ثورة ١٩١٩ م ، بقيادة سعد زغلول باشا كرد على نتائج الحرب العالمية الأولى ، وهى أول ثورة حقيقية فى الشرق فى وجه أعتى الامبراطوريات الاستعمارية .

قامت هذه الثورة فى أحلك الظروف الانهزامية للعالم الإسلامى وكانت نتائجها عظيمة من الناحية الاقتصادية والثقافية ، وظهر فى مصر رواد للاقتصاد ، والصناعة ، والعلم ، والفكر وقد استقلت مصر استقلالا منقوصا

وظهر دستور ١٩٢٣ م ، ولا جدال فى أن حزب الوفد الذى أفرزته ثورة ١٩١٩ م افرازاً طبيعيا ، ظل يقود الحركة الوطنية ضد الانجليز ، وضد جنوح الملك إلى الدكتاتورية والاعتداء على الدستور ولكن الأهم من ذلك كله هو ظهور رغبة عامة لدى الشعب فى الأخذ بأسباب النهضة . هذا علاوة على روح الوحدة الوطنية ومشاركة معظم طوائف الشعب فى الأحداث السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية . كما حدث فى أوائل القرن تطور هام فى الفكر الدينى لمواكبة العصر ، فقد قام الامام محمد عبده والأفغانى وتلاميذهما بالدفاع عن الإسلام ضد دعاة الاغتراب الكامل ودعاة السلفية الرجعية ولا يجب أن ننسى فتاوى الأمام محمد عبده بأباحة المعاملات البنكية ، بل انه شجع الاقتصادى طلعت حرب على انشاء بنك مصر الذى أسهم فى العديد من المشروعات بدءا بشركة مصر للطيران وانتهاء باستديو مصر للسينما ، كما أباح الامام محمد عبده الرسم ، والنحت ، والتصوير ، ووضح مفهوم كل محدثة بدعه فى معناه الحقيقى وهو النهى عن الابتداع فى الدين وتشجيعه فى كل ما عدا ذلك . وقد أقام الامام محمد عبده اتصالات عديدة مع الأدباء والمفكرين العالميين أهمهم الأديب الروسى تولستوى الذى لم ينف تأثره بالإسلام شأنه شأن الشاعر الكبير الروسى أيضا بوشكين .

وظهرت فى مصر حركة تنوير عامة من خلال مركز ترجمة كبيرة ـ مسرح ـ أدب ـ صحافة ـ علم ـ حريات سياسية ـ تحرير المرأه . كل ذلك مع الإحتفاظ بالهوية المصرية الإسلامية .

وفى هذه الفترة وقبل الحرب العالمية الثانية سقط رئيس الوزراء المصرى فى الانتخابات العامة ونوقشت مصروفات الملك فى البرلمان ورغم ذلك تحالف الإستعمار مع القصر لضرب الحركة الوطنية أكثر من مرة كما تحالف التيار الدينى مع الملك عندما رفع الإخوان المسلمون شعار القرآن دستورنا والرسول زعيمنا والمليك خليفتنا !!

واستجاب الملك فاروق وأطلق لحيته وأمسك بسبحة طويلة رغم فسادة الشخصى هذا فى الوقت الذى كانت الحركة الوطنية تحارب المستعمر وتحارب إستبداد الملك واعتدائة على الدستور والحريات

القسم الخامس
ما بعد الحرب العالمية الثانية

إضاعة فرص التقدم :

تحركت الشعوب ضد المستعمرين بعد الحرب العالمية الأولى ، مما جعل الدول الاستعمارية تحاول ترضية الشعوب باستقلال هش ، أو وعود بالاستقلال ، حيث كانت سحب الحرب العالمية تتجمع بين دول المحور والحلفاء . وقامت الحرب العالمية الثانية ، وانتهت بهزيمة المحور . . وضعف الامبراطوريتين الفرنسية ، والبريطانية ، وبزوغ الولايات المتحدة الامريكية . . لترث نفوذ الامبراطوريتين ، وخاصة فى الشرق الأوسط كما ظهر الاتحاد السوفيتى كقوة عالمية تستقطب عدداً كبيراً من الدول ، وبدأت الحرب الباردة بين الكتلتين ، وصراع الايدلوجيات ، نتج عن هذا كله حركة استقلال كبيرة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما بعد . لكن ارادة هذه الشعوب لم تستقل بل إنها بقيت بصورة أو بأخرى مرتبطة بالمستعمر القديم .

وزرعت اسرائيل بمباركة القوتين العظمتين فى قلب العالم العربى عام ١٩٤٨ م ، وبدعم كبير من الولايات المتحدة الأمريكية والغرب عموما ، لتنوب عن الغرب فى تحجيم التنمية الحقيقية للشعوب العربية فى المنطقة ، وقبل ذلك بسنوات قليلة كان الغرب قد أقام عدة عروش عربية ، وتقسيمات للحدود بين الامارات والدول العربية . لا زال الخلاف على بعضها مشتعلا حتى اليوم . المهم أن الاستعمار زرع فى المنطقة العديد من أسباب الاختلاف . ورغم ذلك قطعت مصر شوطا كبيرا فى التقدم ، والفهم السياسى ، وقامت الحركة الوطنية المصرية بتحقيق العديد من الانجازات الوطنية مثل تمصير البنوك واقامة بعض الصناعات والشركات ، وقامت حركة ترجمة كبيرة فيما بين الحربين العالميتين بما جعل مصر تحتل مركزاً مرموقاً فى الوطن العربى ، وإن كان ذلك فى ظل استقلال منقوص لمصر والسودان . وكان النظام المصرى « ليبراليا » تحرسه القوى الوطنية ممثلة فى حزب الوفد

الذى تكون عقب ثورة ١٩١٩ م التى أفرزت انجازات واضحة فى الميدان الاقتصادى والاجتماعى والسياسى . . وكان الاستعمار البريطانى والقصر الملكى يحاولان دائما تحجيم المد الليبرالى المصرى بتدخل الملك فى شئون الحكم ومحاولة العودة إلى النظرية الاستبدالية فى الحكم . . مما أدى لحرمان الحزب الذى يتمتع بثقة الشعب من الحكم الديمقراطى . . الا نحو سبع سنوات خلال ثلاثين عاما . . رأس الوزارة فيها مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول وزعيم الأغلبية الشعبية فى مصر .

ودخلت الدول العربية شبه المستقلة حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وكانت النتيجة المؤسفة المعروفة . . وخلال سنوات قلائل بدأت الانقلابات العسكرية أولا فى سوريا عام ١٩٤٩ ثم فى مصر عام ١٩٥٢ م وكان إسمها حركة الجيش المباركة . ثم سميت ثورة ١٩٥٢ م بزعامة عبد الناصر صاحب الأثر البالغ فى الحياة المصرية سلبا وايجاباً .

وانشغلت الأمة العربية فى الصراع العربى الاسرائيلى . . ودخلت عدة جولات ، كان وجود اسرائيل يتأصل ويتأكد بعد كل جولة . ويبدو أن منطلق ادارة هذا الصراع لم يكن الهدف منه سوى تأكيد دور زعامة الزعماء العرب لا البحث عن حل موضوعى لهذا الصراع ، وصبرت الشعوب على زعمائها ذوى الخطب الرنانة والوعود البراقة وتشرزمت المنطقة العربية أكثر وأكثر فى العقود الثلاثة بعد الحرب العالمية الثانية . وانقسم العالم العربى إلى دول أسمت نفسها تقدميه اشتراكية ، وأسمت غيرها رجعية ، راهن النوع الأول على الحصان الشيوعى ، أما النوع الآخر فلم يخرج على طاعة الغرب . . وخاصة بعد ظهور النفط فى المنطقة واصرار الغرب على السيطرة الكاملة عليه بأعتباره شريان الحياة وعصب الحضارة المعاصرة . وقد ثبت هذا جليا فى حرب الخليج .

وظهر ما يسمى بدائرة البترودولار حيث يستخرج النفط للغرب ويستثمر معظم ثمن النصيب العربى منه ايضاً فى الغرب . أما الدائرة

الإسلامية الأوسع من باكستان وأندونيسيا إلى تركيا مروراً بايران فقد ظلت داخل النفوذ الغربى مرغمه أو مختارة .

أضاع العرب فى العقود الثلاثة بعد الحرب العالمية الثانية فرصا كبيرة للتنمية الحقيقية ، وخاصة مصر التى كانت قد وصلت إلى درجة معقولة من التقدم . وكانت أوروبا ومعها أمريكا لا زالتا مشغولتين بازالة آثار الحرب الغالمية الثانية فى أجزاء عديدة من أوروبا مثل فرنسا وألمانيا وايطاليا وشرق أوروبا وضاعت الفرصة الذهبية للتنمية وخاصة فى مصر الوطن المؤهل فنيا ومادياً للتنمية والتقدم .

مسئولية نظم الحكم :

كانت الأمة العربية والإسلامية هى الضحية لقصور دوائر اتخاذ القرار فيها . . فالحكم أما قبلى عشائرى وإما دكتاتورى يحلم بالمجد الشخصى معتمدا على اعلام مضلل . . وسجون مفتوحة وعقول مقهوره أو مغسوله .

وظهرت عبادة الفرد فى أجلى صورها فى مصر وسوريا والعراق ، وبيعت مصالح الشعوب بثمن بخس لأعدائها ألا وهو لبقاء الزعيم بأسمائه الخلابة فى عرشه ، الزعيم القائد . . الزعيم الملهم . . المعلم . . المؤمن . . وأحيانا المهيب . . والرفيق . . حتى يموت ويظهر ملهم ومعلم وقائد آخر . . يقول نفس الكلام ، ويطلق نفس الشعارات المخدرة للشعوب تخدمه نفس البطانة من المنافقين ، ويستوزر نفس المماليك ، وتغرق الشعوب فى الديون ، والبطالة المقنعة ، والتضخم . ومما زاد الطين بلة ظهور الغنى الزائف لشعوب الدول المنتجه للبترول ، وخاصة بعد حرب ١٩٧٣ م المجيدة . . فالغنى الناتج عن غير عمل انسانى يفرز عقولاً فقيرة ونفوسا مريضة أثرت على قيم العمل فى العالم العربى كله ، وخاصة بعد أن فتحت الدول ذراعيها للعمالة القادمة من الدول العربية الفقيرة . . أو التى أفقرها سوء التدبير الناتج عن الحكم الدكتاتورى . . فأحدث اهتزازاً لقيمة العمل ، وروجت هذه الدول فى أوساط تلك العمالة أفكاراً متخلفة سلفية الشكل سطحية المضمون ، مما أثر على

العقل العربي والإسلامي بالسلب . وكما أضاع الحكام العرب فرصة الثلاثين عاما بعد الحرب العالمية الثانية أضاعوا ثمرة حرب أكتوبر التى جاءت كومضة تقول ان الأمة العربية والإسلامية عل قيد الحياة ولكن سرعان ما أختفت هذه الومضة وحلت الغفلة مرة أخرى ، لنصل إلى أزمة الخليج وما أدراك ما أزمة الخليج هى أزمة غنية عن البيان والتدليل .. تمثل قاع المهانة لأمة لا تجد ما تستر به نفسها كما تمثل أيضا قمة التآمر الأجنبي المستغل لقمة الجهل والغفلة ان لم يكن العمالة ، ولا يزال العرض مستمراً . والسؤال الأخير فى هذا الكتاب هو : هل تصلح النظم القبلية والعشائرية والشمولية عموماً ، والديمقراطيات المزيفة لافراز الكفاءات افرازاً حقيقيا ينتهى بوضع الرجل المناسب فى دوائر اتخاذ القرار .. ؟

والاجابة أن الافراز الطبيعى للكفاءات والقيادات من وعاء الأمة كلها يعتمد على الآتى :

١ - نظام يقدس الحرية والديمقراطية ويحترم القانون .

٢ - نظام يؤمن بتداول السلطة وعدم احتكارها .

٣ - نظام يؤمن بتكافؤ الفرص فى كل المجالات .

٤ - نظام يؤمن حق المواطن العادى فى المعرفة وصدق ما يلقى اليه من معلومات .

٥ - نظام يشجع المشاركة الشعبية فى الحكم دون أرهاب أو تهديد .

وأخيرا فلنتذكر أيها القارىء العزيز أن النظم الشمولية تخنق أوعية اختيار الكفاءات والقيادات .. فلا تحوى هذه الأوعية الا المنافقين والأغبياء ، الا فيما ندر من الصدف العشوائية ، والنفاق هو ميدان الاجادة والاجازه تحت كابوس النظم الشمولية وقانون الطفو عند المماليك ، وما أكثرهم فى أمة العرب والمسلمين !

يحدث هذا فى وقت حاسم فى تاريخ الأمم وخاصة بعد تفكك العقد

الشيوعى فى أوروبا الشرقية وزوال الاتحاد السوفيتى وأنفراد الولايات المتحدة بالهيمنه على العالم . . وهو عالم لا يزال يفتقد الاستقرار بالتناقضات الاقتصادية والسياسية والتى تغلى تحت السطح بين أوروبا الموحده بزعامة ألمانيا ، وبين الولايات المتحدة ، وبينهما وبين اليابان ، ومجموعة الشرق الأقصى وذلك يتطلب التغير جذريا سريعا وحاسماً فى أمتنا العربية والإسلامية .

كأوطان منفصلة أولا . . ثم تعاون إقليمى ثانيا ثم تكتلات إقليمية أوسع فيما بعد .

الخـــاتمة

فى النهاية ألخص لك إيها القارىء الكريم الفصول الثلاثة التى حاولت جهدى . القاء الضوء أو بعضه فيها على علاقة الشرق الإسلامى بالغرب . . خلال ثلاثة عشر قرنا من الزمان وذلك فى سطور صادقه جاش بها وجدانى . ورغم ذلك لا تبتعد كثيراً عن الموضوعية .

أولا ـ الشرق القديم (عصر الحضارات القديمة) :

تجمع البشر حول الأنهار وتعلموا من الطبيعة وعشقوها فأقاموا مجتمعات عميقة النظرة . . للحياة والكون وتساءلوا عن رب السموات والأرض ورب الخصب والنماء ، واجتهدوا ، فعرفوا ما تطمئن به نفوسهم وانطلقوا بنائين للحضارة ناسجين تراث الانسان فى أوطانه الأولى ، فكان دين ، وعلم ، وفن ، وحكمه . . وأزدهرت الأوطان وشيدت مدن ، وأهرامات ، وحدائق معلقة . . تنطق بالعظمة ، والحكمة ، والعمارة ، ونقوش تحكى تراث مجد عريق . . حتى أترف الملوك والأمراء والكهنة ، فكانت فتن وحروب بين الأقارب وغير الأقارب ، وظل الشرق منبعا للمعرفة والتحضر آلافا من السنين فى روابى الرافدين وعلى ضفاف النيل العظيم .

ثانيا ـ الغرب القديم (الأغريق والرومان) :

على جبال الأوليمب بدأ العقل الغربى خطوات المعرفة وأعجب بالفلسفة والمنطق فهام بهما ، وتميز ونهل الأغريق من تراث الشرق . . وقد تجاوزه فاتحين فأضافوا علوما وفنونا . . وسادوا العالم القديم . . وتركوا بصماتهم عليه فكرا أغريقيا غربى السمات . . ولم يتوقفوا عن الفكر والفلسفة حتى غلبتهم . . الثرثرة فأنشغلوا بها وتنازعوا ، وتفرقوا ، ودافعتهم أمة صاعدة جعلت من روما عاصمة العالم .

وكما فكر الأولون وتفلسفوا شرع الآخرون وأسسوا نظماً وحكماً وقانوناً فتفوقوا ، وحاربوا فانتصروا واقتسموا العالم وكانوا السادة يأتيهم رزق الأرض

من أطرافها ، فأترفوا ، وطغوا وجاءت المسيحية من الشرق بالجديد فتحيروا واضطربوا ، وتنازعوا فانقسموا وانتهبتهم القبائل فى القسم الغربى وعاش القسم الشرقى أمداً طويلاً يصارع الشرق من أجل البقاء .

ثالثا ـ الشرق المضىء (القرن السابع ـ القرن السابع عشر) :

وسط حضيض الجهالة ارتفع للحق بيرق فى وجه البسيطة يبرق . . من حوله تجمع بشر . . تلقوا الهدى وفهموا الحق والأخلاق . . وكرهوا الظلم للنفس والناس فحاربوا . . وفتحوا بالعقيدة أقفال القلوب . . ووثبوا ناهضين فى أسرع زحف عرفه التاريخ . . وسادوا العالم منصفين . . ونقلوا تراث الأقدمين وحفظوه . . وعليه أضافوا كنوزا من العلم والفن والمعرفة . . وظل البيرق يخفق بالعلم والنور . . وازداد الثراء والنماء وأترف الملوك وادعى الحق كثيرون . . فغاب الحق عن كثيرين . . فتنازعوا . . وتفرقوا . . وأثخنتهم جراح الفرقة فى الشرق والغرب وان ظلوا صامدين . . وفاتحين حتى سقطت فى أيديهم . . درة الغرب فى شرقه على أيدى أخوة كانوا صاعدين . . فجددوا شبابا كاد أن يفيض . . فكانوا ملء السمع والبصر فاتحين ومدافعين .

رابعا ـ الغرب الوسيط (القرن السابع ـ القرن السابع عشر) :

بوغت الغرب فى عقر داره وتخبط فى الظلام مشدوها حائرا . . وتقوقع فى داخله مئات السنين يجمع القلوب حول ضوء الشمعة الخافت . . مدافعا عن حلمه القديم . . فتعصب ضد الوافدين وحاربت شعوبه بالجهل والتخلف تحت أعلام الحلم القديم . . وبالتعصب قدموا لقلب الشرق المضىء ففشلوا ، وانهزموا وعادوا بخفى حنين يتخافتون . . ويتلمسون الأسباب . . وانفتحوا على التراث الانسانى القديم والمنقول والجديد فى ذلك الحين وتنازعوا فيما بينهم طويلا . . طويلا . . حول الطريقة المثلى لبعث الحلم القديم وقدحوا زناد الفكر فأثمر ، ولاح فى الأفق فجر جديد . قرب الحلم . . وجدد قواهم الماديه . . والمعنوية . . فعادوا يضغطون الشرق فى غربه حيث مالت شمسه فيها للمغيب . . وسقطت درة الشرق فى الغرب

(الأندلس) وكانت بداية ، ألهبت خيال المتعصبين الناهضين واستغلوا النجاح فساحوا فى البحار وداروا جنوبا وشرقا (اكتشاف رأس الرجاء الصالح) واكتشفوا العالم الجديد وازدادوا ثراء وقوة .

خامسا ـ الشرق المدافع (القرن الثامن عشر ـ القرن العشرين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ م) :

دافع الشرق عن هيبته وقاوم بالعقيدة مقاومة باسلة مأسوية السمات شريفه المعنى والهدف اتسعت رقعة الصراع شرقا وغربا وجنوبا وشمالا حتى ثقل حمل اللواء وتضعضع الصرح التليد من أطرافه وفى قلبه وتصدعت الأركان تحت معاول الخيانة ، والتكالب والحقد القديم ، وظل يدفع بالعزة جحافل التفوق فى عناد واستشهاد ولكن الشرق لم يتلمس الأسباب . . ولم يفكر . . ولم يتفلسف . . ولم يفطن لتغير العصر والمنهج وقوى الصراع . . فتخبط القاده . . وكان حماس دون فكر . . فذبل التراث وتجمد العقل . . وزحف الظلام وأغترب الشرق فى عصره .

سادسا ـ الغرب المتفوق (القرن الثامن عشر ـ القرن العشرين) :

انجزت شعوبه فكراً وعملاً وكدحوا طويلا . . وشعروا بالتفوق فحاربوا ليسيطروا بأسلحة جديدة . . بالتجارة . . والعمارة . . والكشوف . . ومخترعات حديثة . . مكينة ، واخترعوا آليات للحياة تحكمها وتصلح نفسها بنفسها عند كل فتور فى أى ميدان . . آملين لحضارتهم الخلود وسادوا بسلطان العلم والمعرفة والبأس الشديد .

وكانت الحضارة الحديثة خلاصة حضارات الانسان . . متجددة الروافد . . غربية الملامح والأصول وتحسبوا للشرق أن يفيق ففصلوا الرأس عن الجسد والأذرع . . وغسلوه فى مياه غريبة . . وزرعوا فى القلب سكينا تدميه دوماً . . وانطلقوا بعربة التاريخ فرحين .

سابعا ـ الشرق الجريح (القرن العشرين ما بعد الحرب العالمية الأولى) :

انهزمت فيه العقول قبل الجيوش . . وتمزقوا شيعا فى الجهالة . . ووقفوا مشدوهين وما يزالون . . قبلوا الوصاية طائعين ومكرهين . وعندما جادت عليهم السماء بالثروة من باطن الأرض لم تجد عقلا يرشدها أو فكرا يوجهها . . فانحدروا وتغيرت فيهم ملامح البشر . حاول منهم القليلون تحريك العقول ونادوا بضرورة الفكر . . والفلسفة . . والعلم وحقوق الانسان . . وتجديد التراث الأصيل مؤمنين بأن الشرق لا زال فى جعبته الكثير . . لخير البشرية . . وحضارة الانسان . . هكذا يقول التاريخ . . ذلك التاريخ الذى نسجته فى مجمله أياد شرقية . . فرعونية . . وآشورية . . وبابلية . . ثم أسلمت القلوب والعقول فأصبحت الأنامل إسلامية . . الهوية . . وجاء الإسلام وطنا لشعوب محبة للسلام . . والتسامح حتى جاء من زيف وكذب . . واستغل التسامح . . وامتص الرحيق . . وأنكر وادعى ما ليس له فى كثير . . وكان ما كان . فهل قدره أن يموت بالتسامح ؟ هذا الموت البطىء على أكفان التخلف المرفوض والمفروض ؟ أم نأخذ العلم تحصيلا ومنهجا كما فعلوا . . ونأخذ بالمعاصرة لغة وفقها كما فعلوا ، ونلتقط الراية الملقاة ننفض عنها التراب غير متشنجين ولا متعصبين فمن تعصب هلك . . ومن عاش ماضيه فى عصره فقد جهل سنن الكون والحياة ، أما التراث فشكل وجوهر . . شكل يتغير ويتبدل مع الزمان والمكان ، وجوهر فياض لا يخضع للحدود . وإلى اليائسين أقول : لا تبحثوا بعيداً عن مفتاح النهوض فهو قريب اتركوا فقط مقاعد المتفرجين . . وأعملوا للحرية والديمقراطية ومنهج علمى نضعه كبشر . . نختلف عليه ونعدله كبشر لا كأنبياء أو آلهه فالله واحد أنزل كلمته ووعد بحفظها . لم يفوض فيها ثمة بشر . ونعود كما كنا فقهاء عصريين متخصصين فى فقه الدين واللغة وفقه العلوم . . والفنون . . والآداب . . والفلسفة ، وفقه الاقتصاد ، والزراعة ، والصناعة ، والرياضة . . ولا ينبغى أن ننسى أن الفقه أعلى مراتب الفهم . . ونقول وداعا للنقل والتقليد . . ومرحى للعقل والتجديد . وحى على الفلاح بالابتداع على

طريق المنهج العلمى فى كل ما يتعلق بالحياة نفعل ذلك بقلوب متعلقة بكلمات الله معنى وقصداً . . فحى على الجهاد والله أكبر معنى تجيش به النفوس قبل الحناجر . . ونلتقط الراية فى ثقة ووعى رويداً رويداً . . لتبقى خفاقة عالية . . ومرة أخرى حى على الجهاد . . والله أكبر .

تم بحمد الله

المراجع

Social History of England Asabriggs

Early Modern Europe 1500 - 1789. H. G koenigs Berger

The Industrialization 1780 - 1919 Clire .Trebilcock

رحلة إلى مصر لـ كارستن ينبور ترجمة د. مصطفى ماهر

أتاتورك ميلاد أمه تأليف لورد Kinross

تاريخ مصر من الفتح العثمانى تأليف عمر الأسكندى وسليم حسن

الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها تأليف استاذ دكتور عبد العزيز الشناوى

صفحات من تاريخ مصر إبراهيم باشا ١٨٤٨ ـ ١٩٤٨

تاريخ القرن التاسع عشر تأليف محمد قاسم ـ حسين حسنى

تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى هـ . ا . ل فشر

الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى تأليف محمد سيد الكيلانى

ابن حزم الأندلسى ـ دكتور عبد الحليم عويس

مصر فى عصر الأيوبين الدكتور السيد الباز

أطلس تاريخ الإسلام د . حسين مؤنس

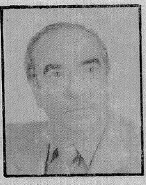
كتاب الحيل لبنى موسى ابن شاكر د . . أيتلابير

المحتويات

رقم الايداع بدار الكتب
٩٢/٥٩٩٤

الترقيم الدولى
I.S.B.M
977 - 13 - 0054 - 7

مطابع الأهرام بكورنيش النيل



لواء/ ا . ح مهندس
عبد الحميد على محمود شرف

- مواليد المنصورة عام ١٩٣٢
- حصل على بكالوريوس هندسة ١٩٥٦ والماجستير فى الهندسة عام ١٩٦٤
- التحق بالقوات المسلحة بعد تخرجه من الكلية الحربية عام ١٩٥٦ وحتى ١٩٨٥ .
- حصل على دراسات عسكرية واستراتيجية فى الاكاديميات العسكرية بالخارج وحاصل على زمالة كلية الحرب العليا بأكادمية ناصر العسكرية .
- مارس العمل النقابى كعضو مجلس أعلى نقابة المهندسين .
- مارس الكتابة فى الصحف العامة والمتخصصة .
- حاصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الاولى عام ١٩٨٢ .
- حاصل على وسام الجمهورية عام ١٩٨٥ .